دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

التوبة والنسك في الإنجيل

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

التوبة والنسك
في الإنجيل

للأب متى المسكين

كتاب : التوبة والنسك في الإنجيل.
المؤلف : الأب متى المسكين.
مطبعة دير القديس أنبا مقار ـ وادي النطرون.
الطبعة الأولى : ١٩٧٥ .
الطبعة الثانية : ١٩٨٢ .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٨١/٤٥٦٢ .
الترقيم الدولي : ٦ ـ ٥٦ ـ ٧٣٢٠ ـ ٩٧٧

المحتويات



الباب الأول

التوبة سرٌّ إنجيلي

- التوبة ممارسة فعلية مستمرة لسر الخلاص.
- سر التوبة في اعتبار الله وتدبيره.
- رسم مبسط للتوبة في الناموس.
- رسم مبسط للتوبة في العهد الجديد.

التوبة سرّ إنجيلي

التوبة سر من أسرار الكنيسة. ولكن هذا السر يُعتبر في الواقع مدخلاً لجميع الأسرار، إذ لا يمكن أن يتم فعل أي سر في الإنسان إلا إذا كان تائباً إلى الله[1]: «إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون» (لو١٣: ٣).

وإذا نظرنا إلى الحياة المسيحية على أساس الخبرة الروحية والسلوك بمنهج الإنجيل، نجدها عبارة عن عمل توبة مستمر، أي رجوع متواصل إلى الله، لأن دخول الخطيئة في كيان الإنسان جعلته ينزع إلى الإبتعاد عن الله: «فاختبأ آدم» (تك٣: ٨) وهو في حالة خشية من الله وخوف لم تكن من طبيعته أصلاً «سمعت صوتك في الجنة فخشيت» (تك٣: ١٠)، وذلك بسبب التعدي على وصية الله. ولا يزال التعدي موجوداً ولا يزال الخاطىء يطلب الإبتعاد عن الله ويخاف.

المسيح جاء ليرفع حالة الخشية والخوف، و يرد الإنسان إلى الله، وذلك طبعاً برفع الخطيئة من كيان الإنسان.

رفع الخطيئة وآثارها المفسدة من طبيعة الإنسان هو عمل الغفران، الذي يتم بفعل إلهي، يستمد قوته من سفك دم المسيح «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية» (١يو١: ٧). وهذا هو مضمون سر الفداء والمحبة.

التوبة، إذن، كحالة رجوع إلى الله واطمئنان، هي في الواقع دخول في سر الفداء، وقبول فعل المحبة المستقر في دم المسيح. لذلك صارت التوبة باختصار سراً إلهياً.

الرجوع إلى الله لا يُمكن أن يتم بقدرة الإنسان وحده: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب» (يو٦: ٤٤). وقديماً يقول النبي: «توِّبني فأتوب» (إر٣١: ١٨).

---

(١) أنظر كتاب: «الكنيسة والدولة»، الطبعة الأولى ١٩٦٣

كذلك فإن الله لا يجذب الإنسان إلا بناءً على سعيه واشتياقه، أي يلزم بالضرورة أن يكون عُنصر مشيئة الإنسان فعّالاً وموجوداً في التوبة، لأن الله يطلب الإنسان بدون قسر ولا تعسف، إكراماً لحريته: «تعالوا إليَّ ياجميع المتعبين» (مت ١١: ٢٨)!! «من يقبل إليَّ لا أخرجه خارجاً» (يو٦: ٣٧)، «إن عطش أحد فليُقبل إليَّ» (يو٧: ٣٧)، «إرجعي أيتها العاصية ـــ إعرفي فقط إثمك ـــ ارجعوا أيها البنون العصاة» (إر٣: ١٢ـــ١٤).

إذن فالتوبة هي تقابل بين مشيئة الله المُحبّة، الهادئة، الجاذبة للإنسان الخاطىء بفعل دم المسيح، وبين مشيئة الإنسان المُتعَب الخائف، ورغبته الجدية في العودة إلى الله.

تَقابُل مشيئة الله مع مشيئة الخاطىء هو في الواقع انفتاح جديد في الطبيعة البشرية، لتقبل أفعال الرحمة والمحبة واللطف الإلهي، بصورة جدِّية يشعرها الإنسان، ويتأثر بها جداً، ويقف إزاءها حائراً، مفعماً بمشاعر مختلطة معاً من الشكر والعجز والندم والحب والإندهاش، ولا يسعه في النهاية إلا أن يسلِّم نفسه أسيراً لله إلى الأبد.

أفعال رحمة الله ومحبته ولطفه ليست مجرد مشاعر إلهية تعبر في طبيعة الإنسان التائب والمنفتح لله لزيارة عابرة، ولكنها أفعال إلهية تُحدث تأثيراً جوهرياً مستمراً في طبيعة الإنسان، يكون لها نتائج يُستدل منها أنه قد حدث تجديد جذري في طبيعة الإنسان.

وإذ يظهر على الإنسان المتجدد صفات ومواهب روحية أخرى فائقة على الطبيعة البشرية، غير التي كانت فيه، اعتبر الكتاب المقدس هذا التجديد «خليقة جديدة» (٢ كو٥: ١٧) روحية للإنسان!!

ومن هنا يصير سر التوبة ذا صلة جوهرية بسر المعمودية، لا يمكن فصلها ولا تحديد أي منها بدون الآخر. فالمعمودية هي توبة أولى عظمى إلى الله، واقتبال تجديد في طبيعة الإنسان، برفع الخطيئة الأولى وعقابها الموروث. والتوبة تجديد مستمر للمعمودية، بقبول مغفرة دائمة عن الخطايا الشخصية لدوام الحياة مع الله بالروح.

المعمودية ميلاد جديد لروح الإنسان، والتوبة تجديد مستمر لهذا الميلاد الثاني، وذلك للسلوك الدائم حسب الروح.

الإنسان المولود من الروح إذا لم يسلك بالروح، يطغى عليه الجسد، وتسود عليه الخطية، ويموت ثانية كما مات آدم أولاً. وهذه هي صورة الموت الثاني التي أشار إليها سفر الرؤيا (٢٠:٦).

أي أن المعمودية، إذا لم تسندها التوبة، تفقد عملها «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو١٢: ٣٥).

الميلاد الثاني الذي بالمعمودية، ودوام هذا الميلاد الثاني بالتوبة (التجديد المستمر)، يخص روح الإنسان لا جسده.

الجسد سيكون له ميلاد ثان جديد أيضاً، وذلك في القيامة العامة، لممارسة الخلود «سيغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء» (في٣: ٢١).

أما الميلاد الثاني الذي يتم للإنسان الآن، و يستمر بالتوبة، فهو ميلاد للروح فقط، وهو هو صورة (ختم أو عربون) القيامة الأولى، التي أشار إليها سفر الرؤيا: «مبارك ومقدَّس من له نصيب في القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم» (رؤ٢٠:٦)!!

أي أن بالمعمودية والتوبة الدائمة ينال الإنسان قوة حياة جديدة مستترة، قوة قيامة حقيقية في كيانه الروحي: «قد قمتم مع المسيح» (كو٣: ١) تؤهله بالضرورة للقيامة العامة والحياة الآتية: «فالذي أقام المسيح... سيُحيي أجسادكم المائتة» (رو٨: ١١)، «وحياتكم مستترة مع المسيح في الله» (كو٣: ٣). أي أن كل من يحصل على قوة القيامة الأولى الآن، بالمعمودية والتوبة، يصبح له وحده القدرة في القيامة الثانية أن يأخذ جسداً جديداً «على شبه جسد المسيح» الذي هو بمثابة ميلاد

ثاني للجسد.

التوبة إذاً هي سر تجديد ودوام الميلاد الثاني، وهي سر الحصول على قوة القيامة وعربون حياة الدهر الآتي أيضاً وذلك بالموت المستمرعن العالم، وهي سر عتيد أن ينال به التائب جسداً جديداً ثانياً غير فاسد، وذلك بعدم إطاعة شهوات هذا الجسد الفاني، وإماتة أعضائه التي على الأرض (كو٣: ٥ ــ ١٠).

التوبة ممارسة فعلية مستمرة لسر الخلاص

رجوع الإنسان الخاطىء إلى الله يبدأ من جهة الإنسان، بحصر الخطيئة في الشعور، وتسليط نور حق الله والوصية على الضمير، لفرز أعمال الخطيئة الميّتة وميولها واتجاهاتها. ولكن لا تُعتبر التوبة قائمة فعلاً إلا بتوسط من جهة المسيح، وذلك بسكب «روح الحياة» في كيان الإنسان، بعمل الدم، ليتم رفع الخطيئة كطبيعة ميتة ومهيأة للموت، لأن رفع طبيعة الخطيئة الميتة من كيان الإنسان هو مفهوم سر الخلاص! «و تدعو اسمه يسوع لأنه **يخلّص** شعبه من خطاياهم» (مت ١: ٢١).

التوبة مرتبطة بالخطيئة، والخطيئة مرتبطة بالخلاص.

الخلاص يبدأ بتصميم الإنسان على نبذ الخطيئة والقيام بمحاولة جدية للعودة إلى الله، و يكمل بتوسط المسيح بسكب روح الحياة في كيان الإنسان، لرفع الخطيئة بفعل الدم المسفوك... والإتجاه الأرثوذكسي لا ينظر إلى الخلاص كعمل يمكن أن يتم في فترة زمنية محددة، بل يعتبره فعلاً دائماً مستمراً مرتبطاً بالحياة كلها؛ سواء من جهة الإنسان **بدوام فحصه لسلوكه** ودوام رجوعه إلى الله، أو من جهة المسيح بدوام فعل دمه بالمغفرة والتطهير.

فالخلاص هو إذن تاجٌ أو إكليلٌ لحياة مسيحية، ارتبطت بممارسة التوبة على طول المدى: «جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، **حفظت الإيمان**، وأخيراً قد وضع لي **إكليل** البر» (٢ تى ٤: ٧،٨).

كذلك واضح أيضاً أن الإتجاه الأرثوذكسي يرفض أن يعتبر الخلاص حالة يمكن أن تصبح منفصلة عن التوبة، لأن السلوك المسيحي لا يمكن أن يستقيم بدون تصحيح مستمر «أقمع جسدي (الآن) واستعبده حتى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١كو٩: ٢٧). فإن كان الخلاص هو لبس الثوب الأبيض والقيام مع المسيح، فالتوبة هي غسيل كثير بالضيق والتعب وسعي متواصل بالأنين والألم، لتبييض الثياب في الدم: «**هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسَّلوا ثيابهم وبيَّضوا ثيابهم في دم الخروف**» (رؤ٧: ١٤).

ولكن لا يُفهم أن الغسيل الكثير بالضيق والتعب والسعي المتواصل بالأنين والألم لتبييض ثياب الإنسان هو جهد إنساني محض أو عمل من طرف واحد، إذ يلزم جداً أن لا نغفل كلمة «في دم الخروف» التي تحصر كل جهد الإنسان في دائرة النعمة. بحيث أن أي محاولة لغسل الثياب وتبييضها بوسيلة أخرى غير دم المسيح يكون عبثاً.

واضح، إذن، أن حياة التوبة لا تقوم على مجرد رجوع مستمر إلى الله من جهة الإنسان، بل وتشمل ضمناً وباستمرار عملاً سرياً إلهياً من جهة الله، وهو رفع الخطية التي يتقدم الخاطىء مُقرّاً ومعترفاً بها، وذلك بتطهير دم المسيح. أي أنه داخل في صميم حياة التوبة فعل غسل تطهير وتقديس بالدم، وهو الذي يجعل التوبة «سر»: «لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١كو٦: ١١). فإذا أُغفل هذا الفعل الإلهي، الذي هو هبة النعمة، وسخاء عمل الفداء، وقوة الخلاص، تصير التوبة عملية بشرية مجردة فاقدة لمضمون «السر».

معروف قطعاً أن الله يدعو كل إنسان، وكل إنسان يستطيع أن يستجيب، لو شاء. فإذا صادفت دعوة الله استجابة الإنسان، بدأ في الحال حياة توبة.

دعوة الله، هي الخلاص المجاني المعروض على الإنسان. واستجابة الإنسان، بمثابة باب للدخول في هذه النعمة.

لذلك فحياة التوبة ليست هي مجرد رجوع إرادي إلى الله، بل هي أيضاً قبول دعوة

للدخول، دخول في عهد نعمة وحالة خلاص. هذا الدخول ليس محدوداً بزمن، وليس له نهاية، لأن نعمة الله فائقة للزمان، ولا يمكن استيعاب الإلهيات استيعاباً كلياً، لذلك يظل الإنسان يغشى الحياة الإلهية الجديدة، ويمتد، و يستمر يمتد فيها ما يشاء وما يشاء الله، من ذلك صارت حياة التوبة لا تنتهي **إلا بالإتحاد بالله!**

إذن يلزم أن لا نفهم التوبة كأنها فترة أو طور من أطوار الحياة، بل نأخذها حياة، حياة مع الله.

هذا يتضح بالأكثر لو علمنا أن كلمة «توبة»، في معناها الأصلي، هي الميطانيا μετάνοια . والميطانيا حرفياً هي **«تغيير فكر»** أو «تحوُّل في الروح».

والكنيسة — على مستوى عملي — تفهمها تجديداً في كيان الإنسان، يوهَب للإنسان بعد المعمودية، من قِبَل الله، بواسطة الإعتراف.

أي أنها عملية **ارتقاء** مستمرة في طبيعة الإنسان، على أساس الشعور بالخطيئة والندم عليها، والإعتراف بها، التي هي في الواقع حالات تذلل **واتضاع**. ومعروف أن الميطانيا تُعلَن بالسجود إلى الأرض وتعفير الوجه بالتراب، سواء لله أو للناس، كتعبير عن التذلل والإنسحاق.

إذن فالتوبة مطابقة عملية لقول الإنجيل: «من يضع نفسه يرتفع» (لو١٨ : ١٤). وعلى قدر الإستمرار في الإتضاع، يكون الإستمرار في الإرتقاء، و بين الإثنين يكون **تغيير مستمر!**

فالتوبة عملية تغيير مستمر في كيان الإنسان، إلى أسفل بالإرادة، وإلى فوق بالنعمة. هذا هو المفهوم الحيوي لكلمة ميطانيا. و بذلك تكون التوبة عكس البر الذاتي، الذي هو الإكتفاء أو الشعور بالكفاءة، حيث تتوقف عملية التغيير الداخلي إلى فوق، بسبب عدم الشعور بالحاجة إليها، إذ يظن الإنسان «البار» عند نفسه أنه قائم في حالة نعمة فلا يشعر بلزوم الإتضاع. وهنا تبدأ تنعكس المطابقة الإنجيلية و يصير «كل من يرفع نفسه يتضع» (لو١٨ : ١٤)، أي يصير هناك حالة تغيير معاكس، وهبوط،

وفقدان روحي مستمر.

هذا في الواقع منهج عملي. وسوف نجد في كتابات الآباء كيف مورست هذه الحقائق عملياً. وعن ذلك يُعلِّم مار إسحق:

[التوبة موافقة لكل وقت ولكل شخص، للخطاة وللصدِّيقين الذين يتطلعون إلى الخلاص، إذ ليس هناك حدود للكمال، بل إن كمال الذين يشعرون بالكمال هو هو عينه عدم الكمال!! وهكذا تكون أعمال التوبة وزمانها مفتقرة إلى تكميل، حتى إلى لحظة الموت!!].

هذا المنهج الإنجيلي والأبوي في مفهوم التوبة العملي هو أيضاً مطابق للمفهوم اللاهوتي في معنى الإقتراب إلى الله والإتحاد به، حيث معروف لاهوتياً أن بقدر ما يتحد الإنسان بالله، بقدر ما يشعر بحقارة معرفته وعجزه.

النفس التي لا تمارس التغيير الداخلي بالميطانيا، أي التوبة على أساس الإنسحاق لله، لا تدخل في النعمة ولا تدركها، وتكون هذه علامة تحجُّر في قلب الإنسان ونذير موت. ومن هنا تظهر خطورة التوبة كعمل حياة أو موت مثيل للمعمودية، بل يوجد من الآباء من يرى أن التوبة أخطر من المعمودية نفسها. فنحن نقرأ للقديس يوحنا الدرجي(*):

[إن ينبوع الدموع بعد المعمودية قد صار أعظم من المعمودية نفسها ولو أن هذا جرأة في القول].

ولكن نحن نرى أن ليس في كلام القديس يوحنا الدرجي تهويل، لأن التوبة هي ثمرة نعمة المعمودية وتستمد قوتها السرية منها. فالذي عَدِم التوبة هو بالتالي عادم المعمودية أيضاً. أي أن التوبة إما تُقيم المعمودية وإما تلغيها. ومن هنا تظهر خطورة التوبة.

(*) كتاب: «سلم السماء» ــ الدرجة السابعة.

ولكن الذي نود أن ننبه ذهن القارىء إليه مبكراً، أن كلمة «**ينبوع الدموع**» التي تفيد معنى التوبة والتي يستخدمها القديس يوحنا الدرجي باستمرار، وكل ما يشمل معنى البكاء على الخطايا عند الآباء، هو في الواقع «عمل نعمة» وليس جهاداً شخصياً، هو موهبة وليس تدريباً، و يسميها مار إسحق: «موهبة الدموع»، وهي أيضاً علامة على توبة مثمرة. لذلك فإن الدموع تشير سراً إلى الفرح الحقيقي، والدليل على ذلك قول الرب: «طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون» (لو٦: ٢١).

لذلك فالدموع المملوءة رجاءً، داخلة ضمن سر التوبة لأنها برهان على دخول التائب إلى النعمة، ورمز وإشارة خفية لبلوغه حالة الفرح الحقيقي!

ومن ذلك نفهم كيف أن الدموع تغسل الخطايا، لا كأنها عمل بشري إرادي، لأن أعظم عمل للإنسان لا يُكفِّر عن أصغر خطيئة، ولكن الدموع تغسل الخطايا لأنها **عطية الروح القدس وعمل ظاهر من أعمال النعمة**، وهي تكشف عن ابتداء تغلغل قوة الله في كياننا. أي أن الدموع إعلان واضح عن حصول عملية تغيير داخلي. فهي برهان سر التوبة وقوتها أيضاً.

ولكن لا يظن أحد أنه يمكن أن تُعطى له دموع توبة، دون أن يكون هناك تكريس للإرادة والمشيئة، واشتياق دائم للإتجاه بالقلب نحو الله، وهذا عمل يتعلق بحرية الإنسان، أي أن عزم الإنسان على هجران حياة الخطية وتقديس حياته لله بالحب يفتح أمامه باب مواهب كثيرة من ضمنها الدموع. وفي هذا يحث القديس يوحنا الدرجي أن تكون حياة الإنسان التائب (الراهب) حياة التهاب مستمر:

[من هو إذن الراهب الحكيم المخلص، إلا الذي احتفظ بحرارته من أن تطفأ، وحتى إلى زمان خروجه لا يكف أن يشعل في قلبه ناراً على نار، ونشاطاً على نشاط، وأشواقاً على أشواق، وغيرة فوق غيرة].



سر التوبة في اعتبار الله وتدبيره

الله دائماً طرف أساسي وفعّال في توبة الإنسان: «هانذا واقف على الباب وأقرع» (رؤ٣: ٢٠). نداء الله للخاطىء ودعوته للتراثي أمامه جزء هام من تدبير الله منذ البدء «آدم... أين أنت؟» (تك٣: ٩).

الله دائماً في حوار مع الخطاة ليجذبهم إلى الخروج من الورطة: «هلم نتحاجج يقول الرب، إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج» (إش١: ١٨).

كان لما اغتاظ قايين في قلبه على أخيه، ودخلت خطيئة البغضة قلبه من نحوه، لأنه نال نعمة في عيني الرب أكثر منه، فانكسرت نفسه، وسقط وجهه وفكر في قتل أخيه؛ أن الرب قابله واقتحم عليه طريق تفكيره في هذا الإثم المريع، ووقف يحذره: «عند الباب خطيئة رابضة تشتاق إليها وأنت تسود عليها (لو شئت)» (تك٤: ٧)، وفي نفس الوقت يفتح أمامه طريق التوبة والخروج من المأزق: «لماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت أفلا رفع؟» (تك٤: ٦، ٧).

أولاً: تحذير. ثانياً: تأنيب. ثالثاً: تشجيع على القيام.

هكذا الله يتعقب الخطيئة و يطاردها مع الإنسان، وهي لا تزال في الضمير، الرب يدخل دائماً نصيراً مع الإنسان في المعركة ضد الخطيئة. يقوّي أولاً جانب الرفض عنده بالتحذير والتخويف والإنذار، لذلك فإن الإنسان حينما تدخله المشورة المشئومة باقتراف الخطيئة و ينبري له صوت الله، في الحال تجده يرتجف و يتردد و يغشاه اضطراب ودوار. هذا الصراع الباطني يتفاوت مقداره، ولكن يستحيل أن تخمد ناره لأن **الخطيئة عنصر غريب على الإنسان.**

الخطيئة لا يمكن أن تسود على الإنسان، إلا إذا انحاز إليها دون صوت الله؛ ولكن حينما يرفض الإنسان مشورة الله المباركة، و يرتد نهائياً عن التحذير، و يتجمد قلبه، و يتشدد لاقتراف الإثم؛ يتقدم إلى الخطيئة بقوة ليست من ذاته، لأن الخطيئة تهبه

سلطانها، والحية تنفخ فيه سُمَّها، فيتخدر و ينصاع وتمتد يده إلى الإثم في جرأة الشيطان.

ولكن صوت الله لا يكف ولا يزال يرن في الضمير، حتى و بعد اقتراف الخطيئة. وهو عينه الذي ينشيء في القلب حالة من الندم والأسف والتوبيخ والمرارة، التي هي بذرة التوبة، خصوصاً بعدما يتحقق الإنسان أنه خُدع، وانتُهك شرفه، وتسجلت ضده الجريمة!

و بذلك نرى أن صوت الله الذي حذر وأنذر أولاً قبل السقوط والذي عاد وصار مصدراً للتوبيخ والندم والمرارة، هو نفسه الذي يبدأ يحاجج الخاطيء و يشجعه للتوبة والقيام وتجديد الحياة.

وهكذا نرى أن الإنسان يمكن أن يسود على الخطيئة حتى ولو خضع لها وسقط في غوايتها، لو أنه انحاز مرة لصوت الله، إما أثناء التحذير قبل السقوط الفعلي فيمتنع، وإما أثناء الندم والتوبيخ فيقوم و يتوب: «ليتك أصغيت لوصاياي، فكان كنهرٍ سلامك، و برّك كلجج البحر» (إش٤٨ : ١٧).

ومن هذا يتبين دور الله الفعال في توبة الإنسان، الذي يبدأ به في نفس الإنسان مبكراً جداً قبل السقوط، وقبل التورط في الإثم. أليس هذا سراً من أسرار الرحمة الإلهية العاملة في التوبة؟ ومسلك الله تجاه الخطاة يعتمد أساساً على فعل رحمة الله وسخائه، فتتحرك أحشاؤه حتى قبل بكاء الخاطيء وندامته. فرحمة الله متغلغلة في كيان الإنسان، فاعلة فيه قبل أن يخطيء، وأثناء ما يخطيء، و بعد ما يخطيء: «و يكون أني قبلما يدعون أنا أجيب، وفيما هم يتكلمون بعد، أنا أسمع» (إش ٦٥ : ٢٤)، «لا تبكي بكاءً... يتراءف عليك عند صوت صراخك، حينما يسمع يستجيب لك» (إش ٣٠ : ١٩).

فالله لا يحجز رحمته عن الخاطيء إطلاقاً، إن هو رجع إليه، مهما كانت أثقال خطاياه ومهما كان زيغانه. فالله يكيل رحمته بمكيال مجده و يسخو في الغفران، بمقتضى

لطفه، ويحب الخطاة بدافع لذته الخصوصية.

وفي هـذا يقول إشعياء، موضحاً الفارق الشاسع بين مسلك الخطاة تجاه الله ومسلك الله تجاه الخطاة:

ــ «استخدمتني بخطاياك وأتعبتني بآثامك. أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي. وخطاياك لا أذكرها» (إش٤٣: ٢٤).

ــ «قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك. ارجع إليَّ لأني فديتك» (إش٤٤: ٢٢).

ــ «من أجل إسمي أبطىء غضبي، ومن أجل فخري أمسك عنك حتى لا أقطعك» (إش٤٨: ٩).

أما تدبير الله في توبة الإنسان وإنقاذه من ورطة الخطيئة وعقوبتها، فكانت وسيلتها في العهد القديم متركزة في اتجاهين:

الأول: إنذار الخطاة، وتوبيخهم المستمر على فم الأنبياء، ليكفُّوا عن سلوكهم الرديء.

الثاني: تشجيعهم على العودة، وإعلان رحمة الله، واستعداده للصفح «أقسم الرب» (مز١١٠: ٤).

فكانت التوبة قديماً قائمة هكذا: «**ارجعوا لتُمحى خطاياكم**» (أع٣: ١٩).

ولكن بإعلان التجسد الإلهي وتكميل ذبيحة الصليب، اتخذ الرب الإله موقف المبادرة؛ وابتدأ هو الخطوة الأولى في طريق توبة الإنسان الخاطىء، مما جعل توبته أكثر فعالية في إعادة الخاطىء إلى حياة مقدسة، لأن بالصليب استُعلن فعل الرحمة الإلهية مُجسّماً أمام الخطاة، الذي على أساسه كان يدعو الخطاة سابقاً بوعود وأقسام، أما الآن فبسفك دم ابن الله يؤكد الله رحمته، و يقدمها مسبقاً، و يبرهن على صدق كلّ مواعيده وأقسامه التي أقسم بها أن رجوع الخاطىء عمل من أعمال مشيئته.

الله كان يدعو الخطاة قديماً بكلمةٍ من فم الأنبياء، وهذه كانت تكفي، لولا جحود

الإنسان وثقل أذنيه عن سماع صوت الله وانصداده بالباطل عن الحق. أما الآن فنرى الرب يسوع، الإبن الحبيب لأبيه، قائماً مذبوحاً على الصليب، ودمه يتكلم في صمت، و يقسم بحياته المسفوكة في بلاغة وروعة وأمانة مذهلة: هاخطاياكم قد غُفرت علانية، فتعالوا... و بذلك صارت التوبة في عهد المسيح هكذا:

لقد غُفرت لكم خطاياكم فتعالوا!...

وفي هذا المعنى يكلمنا سفر العبرانيين قائلاً: «الله بعدما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً، بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في إبنه الذي... بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي» (عب ١: ١—٣).

و يود الرسول هنا أن يقول إن الله في الأول وعد، أما الآن فعمل. في الأول تكلم بفم الأنبياء، أما الآن فتمم ببذل ابنه على الصليب. في الأول وعد، أما الآن فنفَّذ ما وعد به.

و يشدد رسول المحبة على هذا المعنى قائلاً: «أكتب إليكم أيها الأولاد لأنه قد غُفرت لكم الخطايا من أجل اسمه» (١يو٢: ١٢).

ولكن بالرغم من الحالة السعيدة التي صارت للإنسان الخاطيء في العهد الجديد، ببذل الله ابنه يسوع المسيح على الصليب فدية عن الخطاة حتى لا يهلك كل من يؤمن به؛ إلا أننا لا نريد قط أن نقلل من قيمة وعد الله في دعوته للخطاة قديماً، لأن وعد الله قديماً لا يقل قيمة عن عمله حالياً وكلمته لهم بفم الأنبياء كان لها سلطان المغفرة الكامل كما لها الآن.

ولكن ميزة العهد الجديد هي أن المغفرة صارت حاضرة بدون وعد، كون الصليب هو نفسه تتميم وعد، وهو حالة قائمة ذات عمل دائم مستمر، واستعداد تلقائي في الصفح عن كل الخطايا السالفة لكل من يؤمن، من أقصى الأرض إلى أدناها «وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضاً» (١يو٢: ٢).

كما أننا في العهد الجديد نرى أن نماذج المسيح لدعوة الخطاة للتوبة تخلو جميعاً من

عنصر التوبيخ والتهديد والتأنيب، التي كانت عنصراً أساسياً في دعوة الخطاة قديماً، مما يدل على أنه قد حدث تغيير جوهري في قضية توبة الخطاة شكلاً وموضوعاً، أولاً: من جهة الشكل، نجد أن الله الداعي إلى التوبة أصبح يحمل صفتين، صفة الديان، وصفة المحامي في نفس الوقت: «من هو الذي يدين، المسيح... الذي أيضاً يشفع فينا» !! (رو٨: ٣٤)، «الآب... أعطى كل الدينونة للإبن» (يو٥: ٢٢)، «هو حي في كل حين ليشفع في المذنبين» (عب٧: ٢٥).

من أجل ذلك نرى أن الإتهام والتوبيخ والتأنيب للتوبة، التي كانت عمل الديان، سقطت من تلقاء نفسها؛ لأن الديان أصبح أيضاً هو نفسه الذي يشفع في الخطاة. لأنه معروف أن الديان، إذا لم تكن له صفة الشفاعة عن الخطاة، كان عليه أن يؤنب و يوبّخ ويهدد. أما إن كان الديان هو هو الشفيع، فهنا لا يكون محل لا للتأنيب ولا للتوبيخ ولا للتهديد.

وأما من جهة الموضوع، أي من جهة الخاطىء نفسه، فتوبته أصبحت ليست قائمة على أساس احتياجه إلى تبرئة، لأن تبرئة جميع الخطاة قد تمت مرة واحدة بموت المسيح: «لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة» (رو٦: ١٠)، والتبرئة حدثت وتمت للجميع، بينما الجميع رازح تحت الضعف لا يحرك ساكناً «لأن المسيح، إذ كنا بعد ضعفاء، مات في الوقت المعيَّن لأجل الفُجّار» (رو٥: ٦). فهنا المسيح الشفيع لا يشفع بالكلام ولا بوساطة استعطاف، وإنما بسفك دمه، أي بآلامه وتحمُّله لعنة الصليب وتذوُّقه الموت كاملاً، هذه التي هي كلها عقوبة الخطيئة بكل نتائجها.

إذن، فعودة الخاطىء وتوبته لم تعد تحتمل في العهد الجديد أي توبيخ أو تأنيب أو ملامة، لأن كل ذلك حمله المسيح مرة واحدة عن الخطاة:

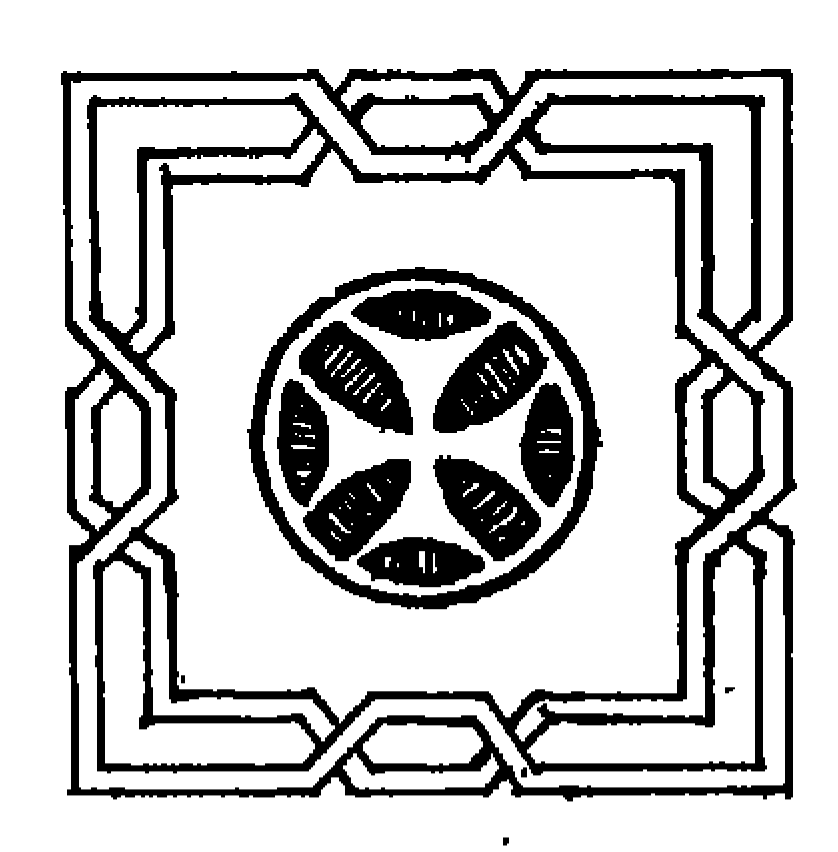
— «أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً. وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه و بحُبُره شفينا... الرب وضع عليه إثم جميعنا... ظُلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه... ضُرب من أجل ذنب شعبي وجُعل مع الأشرار قبره... على أنه لم يعمل ظلماً ولم يكن في فمه غش» (إش٥٣: ٤—٩).

لذلك، وهو عالم بالثمن الفادح الذي سيُغرَّم به عن الخطاة، استطاع أن يقول للمرأة التي أُمسكت في الخطيئة: «ولا أنا أدينك اذهبي ولا تخطئي أيضاً» (يو٨: ١١)، هذه التي كانت الشريعة القديمة تأمر برجمها بلا رحمة!! والخطاة والأثمة الذين كان الناموس يُحرِّم حتى مجرد السلام عليهم والإقتراب إليهم، صاروا محبوبين وقريبين جداً لقلب المسيح «هذا يقبل خطاة و يأكل معهم» (لو١٥: ٢)!! «دخل ليبيت عند رجل خاطىء» (لو١٩: ٧)، «وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه» (لو١٥: ١). «لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التي تلمسه وما هي، إنها خاطئة» (لو٧: ٣٩).

واضح، إذن، أنه قد حدث تغير جوهري في اعتبار الله وتدبيره، من جهة توبة الإنسان بسبب التجسد وموت المسيح، إذ جعل طريق التوبة سراً إلهياً ينطق بفضل الله ولطفه.

ولكن أمام هذا الفضل الإلهي ولطف المسيح الذي يجعل طريق التوبة حديثاً، عبارة عن قبول كرامة واستقبال فرح الله، لا يسعنا إلا أن نحترس ونخاف لأنه: «كيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره» (عب٢: ٣).

وإذا تعمقنا هذا التغيير الجوهري في رسم التوبة قديماً وحديثاً، نستطيع أن نفهم لماذا قال المسيح: «رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل و يدينونه لأنهم تابوا بمناداة يونان، وهوذا أعظم من يونان ههنا» (لو١١: ٣٢).



رسم مبسط للتوبة في الناموس

أولاً، بالذبيحة:

«فإن كان يذنب في شيء من هذه يُقر بما قد أخطأ به، و يأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه عن خطيته» (لا ٥: ٥، ٦).

كان يلزم للخاطىء، لكي تُرفع عنه خطيته فلا يموت و يُقطع من شعب الله، أن يأتي **إلى الهيكل ومعه ذبيحته، وأمام الكاهن، و يضع يده عليها**، و يُقر بما قد أخطأ به!...

وهنا في الواقع رسم عملي لخمسة شروط لا يمكن الإستغناء عنها لتكميل التوبة وقبول الصفح، فالتائب:

أولاً: لابد أن يقف أمام الله.

ثانياً: لا يُسمح له أن يتراءى أمام الله فارغاً فلابد أن يحمل ذبيحة أمامه كواسطة.

ثالثاً: ولابد من وجود الكاهن كشاهد ورسول بين طرفين لينقل سؤال الخاطىء إلى الله (رمز المسيح)، و يوصل صفح الله إلى الخاطىء.

رابعاً: لابد من أن يُقر الخاطىء أمام الكاهن معترفاً بما قد أخطأ به، حتى يرشده إلى تكميل تكفير خطاياه حسب شروط الناموس، إما برد أشياء أو التعويض عنها أو غسل الجسد. وكل خطية لها قانون تكفير: «فيُكفر عنه الكاهن من خطيته التي أخطأ فيُصفَح عنه» (لا ٥: ١٠).

خامساً: لابد أن يضع المعترف يده على رأس ذبيحته أثناء اعترافه لتنقل خطيته إلى الذبيحة، فيتبرأ من حكم الموت الذي هو عقاب كل خطيئة.

وليعلم القارىء أننا وفينا هذه الشروط الخمسة شرحاً وتوضيحاً في كتابنا: «الكنيسة الخالدة»، ويمكن الرجوع إليه (من صفحة ٢٨ــ٥٦، الطبعة الثانية ١٩٧٤).

ثانياً، بالضمير: صور لوصايا التزم بها الضمير الإنساني لتكميل التوبة في العهد القديم:

لم تكن أوامر الناموس الموضّحة في الشروط الخمسة كقانون التوبة كافية لإراحة ضمير الإنسان من جهة الخطيئة، وخصوصاً عند ذوي الضمائر الحساسة، والذين تقدموا في معرفة الرب وكانت لهم معه عشرة ووفاء، كاعتراف بولس الرسول: «لا يمكن من جهة الضمير أن تكمّل الذي يخدم» (عب ٩: ٩)، لذلك نقرأ عن **ناموس آخر** تأمر به الشريعة، يلزم بالصوم والبكاء، ونواح وصراخ، وإحناء الرأس، وتذلل ولبس مسوح شعر خشن على الجسد العاري، والجلوس على التراب، وتعفير الجبين والرأس، والمشي بالحفاء، وتغطية رأس الرجال، وتمزيق الثياب، والتزام السكوت والإعتكاف.

ولا يظن القارىء أن هذه أمور زائدة أو غير مناسبة، كأنها كانت غير مرضية أمام الله، بل على العكس نقرأ بوضوح أنها قُبلت لدى الله ووجد أصحابها نعمة في عيني الله، وصفحاً لم يكن مترقباً قط، كما في حالة آخاب الملك، الذي كان مثلاً للخيانة وقائداً مضلاً للشعب، الذي لما سمع من إيليا بالشر الذي نوى الرب أن يجلبه عليه وعلى بيته، تاب: «ولما سمع آخاب هذا الكلام شق ثيابه وجعل مسحاً على جسده وصام واضطجع بالمسح ومشى بسكوت، فكان كلام الرب لإيليا التّشبي قائلاً: هل رأيت كيف اتضع آخاب أمامي. فمن أجل أنه قد اتضع أمامي لا أجلب الشر في أيامه» (١مل ٢١: ٢٧ و٢٨).

هذا هو آخاب الذي قال عنه الكتاب: «ولم يكن كآخاب الذي باع نفسه لعمل الشر في عيني الرب» (١مل ٢١: ٢٥).

كذلك كانت الإستجابة للتذلل في توبة وصيام الملك واضحة كل الوضوح: «ولما تذلّل ارتد عنه غضب الرب» (٢أي ١٢: ١٢).

وقد أدرك داود النبي في اختبار حياته مع الله، قيمة التذلل الفعلي والإتضاع أمام الله، ومقدار استجابة الله لمشاعر الإنسان القلبية التي يقدمها بدافع حريته للتوبة،

بالنسبة لتتميم حرفية أوامر الناموس: «لو كنت تسر بالذبائح لكنت الآن أعطي ولكنك لا تسر بالذبائح، فالذبيحة لله روح منسحق، القلب المنكسر والمتواضع أنت لا ترذله» (مز٥١: ١٦، ١٧). لذلك نجده في يوم بليته يسلك سلوكاً تذلُّليًّا عالي المثال، جعل قلب الله وقلب كل مُخلِص لله يقف بجواره: «وأما داود فصعد... باكياً ورأسه مغطى ويمشي حافياً... وكانوا يصعدون وهم يبكون... شمعي بن جيرا يسب... و يرشق بالحجارة داود... فقال الملك... دعوه يَسُب لأن الرب قال له... لعل الرب ينظر إلى مذلتي» (٢صم١٥، ١٦).

ولكن لئلا يظن أحد أن هذا عقاب كان يفرضه الخاطىء على نفسه، بدافع شعوره بالإثم و يتحمله ثمناً لخطيئته، نقدم مثل أيوب الصدّيق الذي شهد له الله أنه لم يكن في الأرض كلها مِثْل أيوب، رجل يخاف الله ويحيد عن الشر، وفي الوقت نفسه كان يشعر أيوب و يُصرِّح أنه لا يعتقد أن بليته كانت بسبب خطئه قط، و بالرغم من ذلك نسمعه يقول: «خِطْتُ مسحاً على جلدي ودسست في التراب قرني. أحمر وجهي من البكاء» (أي١٦: ١٥، ١٦).

ولم يكن التذلل والصوم والبكاء ولبس المسوح حالات فردية فقط، بل مارسها الشعب أيضاً وكانت استجابتها سر يعة وواضحة للغاية، مثل ما قدمه الشعب في السبي أيام أستير الملكة: «كانت مناحة عظيمة عند اليهود وصوم و بكاء ونحيب، وانفرش مسح ورَمَاد لكثيرين» (أس٤: ٣).

كذلك وجدنا في العهد القديم أمثلة من أفراد عاديين في الشعب، كانوا أمثلة عالية جداً في إحساس ضمائرهم بمسئوليتهم الشخصية عن خطايا الآخرين، فذللوا أنفسهم عن الشعب كله، وقُبلت مذلتهم واستُجيبت توبتهم عن الآخرين، وكانوا سبباً في يقظة الشعب!... من هذه الأمثلة:

عزرا الكاتب الماهر التقي الكامل: «فلما صلى عزرا واعترف وهو باكٍ وساقط أمام بيت الله اجتمع إليه مِن إسرائيل جماعة كثيرة جداً من الرجال والنساءِ والأولاد لأن الشعب بكي بكاءً عظيماً» (عزرا١٠: ١).

مُردَخاي الرجل البار: «ولما علم مُردخاي كل ما عُمِل (لإبادة الشعب)، شق مُردخاي ثيابه ولبس مسحاً برماد، وخرج إلى وسط المدينة وصرخ صرخة عظيمة مرة» (أس ٤ : ١).

كذلك دانيال الرجل المحبوب: «فوجهتُ وجهي إلى الله السيد طالباً بالصلاة والتضرعات، بالصوم والمسح والرماد، وصليت إلى الرب إلهي واعترفتُ وقلتُ أيها الرب الإله العظيم المهوب حافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظي وصاياه، أخطأنا وأثمنا وعملنا الشر وتمردنا وحِدْنا عن وصاياك وعن أحكامك» (دا ٩ : ٣ــ٥).

كذلك يهوديت المرأة الحكيمة التي خلصت شعبها بتذللها: «دخلت يهوديت مخدعها، ثم لبست مسحاً وألقت رماداً على رأسها، وسجدت على وجهها أمام الرب وصرخت بصوت عظيم إلى الرب» (يهو ٩ : ١).

أما في مثل داود فنرى صورة نادرة المثال لإنسان في العهد القديم، يصوم و يبكي و يتذلل، و يلبس المسوح من أجل أعدائه الذين كانوا يسيئون إليه و يدبرون له الشر: «أما أنا ففي مرضهم كان لباسي مسحاً. أذللت بالصوم نفسي... كأنه قريب، كأنه أخي، كنت أتمشى كمن ينوح على أمه، انحنيت حزيناً، ولكنهم في ظَلْعِي (بليتي) فرحوا واجتمعوا، اجتمعوا عليَّ شاتمين ولم أعلم، مزَّقوا (سيرتي واسمي) ولم يَكُفُّوا» (مز ٣٥ : ١٣ــ١٥).

وهناك صورة للتوبة المقبولة في العهد القديم، تُعتبر نادرة أيضاً. إذ نجد أن الذي تقدم بها ليس هو شعب الله، وإنما شعب غريب عن الله، لم يكن لهم وصايا ولا نبوات ولا ناموس ولا ذبائح، وهو شعب نينوى، الذي قدَّمه الكتاب لنا مثلاً حياً لإتساع قلب الله في قبول أي إنسان على وجه الأرض، إذا تاب إليه وتذلل أمامه، مهما كانت حالته وبُعده عن الحق: «لا يعرف شماله من يمينه» (يون ٤ : ١١)، الأمر الذي كان يعرفه يونان عن الله جيداً، مما حدا به إلى أن يرفض تبليغ أهل نينوى بعزم الله على إبادتهم، إذ كان واثقاً أن رجوع الشعب بالتوبة والتذلل إلى الله كفيل بالصفح عنهم، وقد كان. «فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسحاً من كبيرهم إلى

صغيرهم، وبلغ الأمر ملك نينوى فقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه وتغطى بمسح وجلس على الرماد، ونودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً: لا تذق الناس ولا البهائم ...شيئاً» (يون٣: ٥ــ٧)، فصفح الله عن المدينة... مما أغاظ يونان جداً. ولا يزال يوجد اليوم من هم مثل يونان النبي الذين لا يوافقون على خلاص وتوبة من ليس مثلهم.

ونقرأ أيضاً في الكتاب عن حالة تذلل وتوبة، يقدمها جماعة من الشعب، تشفعاً عن إنسان في ضيقة وخطر، لقيامه بمهمة لخير الآخرين، كما في حالة أستير حينما أرادت أن تقابل الملك وتُحدِّثه بشأن خلاص شعبها: «اذهب اجمع جميع اليهود الموجودين في شوشن، وصوموا من جهتي ولا تأكلوا ولا تشربوا ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً وأنا أيضاً وجَوَاريَّ نصوم كذلك» (أس٤: ١٦).

وفي موضع آخر، نقرأ ليوئيل النبي، دعوة حارة يحث بها الكهنة وخدام المذبح، أن يقدموا توبة وتذللاً، بصفتهم مسئولين عن خطايا الشعب التي سببت غضب الله، وذلك بمناسبة قرب مجيء المسيا: «تنطّقوا ونوحوا أيها الكهنة، ولولوا ياخدام المذبح، ادخلوا بيتوا بالمسوح ياخدام إلهي... قدّسوا صوماً. نادوا باعتكاف... اخرجوا إلى الرب» (يوئيل١: ١٣، ١٤).

ولا نظن أن التذلل كان في العهد القديم على مستوى المشيئة الحرة كناموس تستجيب له النفس طواعية بغير قانون، بل كانت له أصول محددة وكان له قانون وعقوبة ونظام على مستوى جماعي، حددت له الشريعة زماناً معيناً، وأفرد له سفر اللاويين موضعاً رسمياً في العبادة العامة: «وكلم الرب موسى قائلاً: أما العاشر من هذا الشهر السابع فهو يوم الكفارة، محفلاً مقدساً يكون لكم تذللون نفوسكم وتقرِّبون وقوداً للرب. عملاً ما لا تعملوا في هذا اليوم عينه لأنه يوم كفارة للتكفير عنكم أمام الرب إلهكم. إن كل نفس لا تتذلل في هذا اليوم عينه تُقطع من شعبها... عملاً ما لا تعملوا فريضة دهرية في أجيالكم في جميع مساكنكم. إنه سبت عطلة لكم فتذللون نفوسكم» (لا٢٣: ٢٦ــ٣٢).

وقد حرص الكتاب المقدس أن يوضح في مواضع كثيرة ومتفرقة، استجابة حالات تذلل كانت صادقة، حتى يشجع هذا السلوك موضحاً أثره ونتيجته، وقد سجل الكتاب أن الله يسمع التذلل و ينظر إليه و يراه و يذكره:

ــ «الرب قد سمع **لمذلتك**» (تك١٦: ١١).

ــ «الرب قد نظر إلى **مذلتي**» (تك٢٩: ٣٢).

ــ «قد رأيت **مذلة شعبي**» (خر٣: ٧).

ــ والملاك جبرائيل يؤكد هذا الأمر لدانيال النبي شهادة سماو ية صادقة عن قيمة وسرعة استجابة التذلل: «فقال لي (الملاك) لا تخف يادانيال لأنه من **اليوم الأول** الذي فيه جعلت قلبك للفهم **ولإذلال نفسك قدام إلهك، سُمِعَ** كلامك وأنا أتيت لأجل كلامك» (دا١٠: ١٢).



رسم مبسط للتوبة في العهد الجديد

أولاً: بالذبيحة الحقيقية، الكاهن الحقيقي، الإعتراف، الحل:

الذبائح الدموية التي كان يتقدم بها الخاطىء في العهد القديم إلى هيكل الله للتكفير عن خطاياه، يقول عنها بولس الرسول أنها «رمز للوقت الحاضر... لا يمكن من جهة الضمير أن تُكمِّل الذي يخدم» (عب٩: ٩)، و يفسرها أنها كانت «فرائض جسدية فقط موضوعة إلى وقت الإصلاح» (عب٩: ١٠). أما رفع الخطايا فعلاً فكان يتم بإطاعة الوصية فقط: «لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا» (عب١٠: ٤).

أما الذبيحة الحقيقية التي لها سلطان الكفارة عن كل الخطايا والفداء الكلي من عبودية الفساد، فقد استُعلنت لنا في موت المسيح عن الخطاة «وأما المسيح... ليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل **مرة واحدة** إلى الأقداس فوجد فداءً أبدياً» (عب٩: ١١، ١٢).

وعوض الذبائح الكثيرة التي كانت تقدم كل مرة عن كل خاطىء صارت ذبيحة المسيح كافية مرة واحدة عن كل الخطايا لكل الخطاة: «**الآن قد أُظهر مرة عند انقضاء الدهور ليبطل الخطيئة بذبيحة نفسه**» (عب٩: ٢٦). و بكل وضوح يقول بولس الرسول أن المسيح «قُدِّم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين» (عب٩: ٢٨).

وإذا كان من المستحيل، حسب الناموس، أن يتراءى الخاطىء أمام الله في العهد القديم، دون أن تكون يده موضوعة على رأس ذبيحته حتى تُرفع خطاياه عنه وتُنقل إلى الذبيحة التي تموت عوضاً عنه ويحيا هو، هكذا في العهد الجديد، **فإنه يستحيل أن يتراءى الخاطىء أمام الله لتُرفع خطاياه بدون تمسكه بدم المسيح**، الذي «وضع عليه إثم جميعنا» (إش٥٣: ٦). ومات هو لنحيا نحن... لقد صار في ذبيحة المسيح تكميل كامل لكل ترتيب الناموس، من جهة تقديم تضحيات وذبائح. وبمجرد تمسك

الخاطىء بدم المسيح، فإن هذا كفيل أن يرفع طبيعة الخطيئة الميتة ونتائجها المميتة من طبيعة الإنسان، ويهبه حياة جديدة في المسيح، حياة بدمه أو في دمه.. حياة إلهية غير مائتة.

أي أنه كما كان على الخاطىء قديماً أن يعترف في هيكل الله، مقراً بذنبه على رأس ذبيحته أمام الكاهن، وبشهادته، لكي تنتقل خطيته عنه إلى ذبيحته، و يُعتق هو من حكم الموت الذي وقع فيه، **كذلك الآن أيضاً نعترف بخطايانا مُقرِّين بها لتقع على كتف المسيح كـ«حمل الله الذي يرفع خطية العالم»** (يو١ : ٢٩)، لتصير محسوبة ضمن الخطايا التي حملها الرب يسوع في جسده على الصليب وأكمل عقوبتها عنا بموته، فنُعتق من حكم الموت ونتقبل بالتوبة حياة جديدة من لدن الله.

الخطيئة أنشأت خشية واختباءً وانفتاح العين بالشهوة، والتوبة عودة إلى الثقة والتراءي أمام الله، واغتسال العين بالدموع للنقاوة. وكما أن المعمودية يُستلزَم فيها أن يخلع الإنسان ثيابه التي حتمتها الخطيئة والعين المفتوحة على الخطية، كذلك فالتوبة يُستلزم فيها أن يتعرى الإنسان من أسراره وخوافيه، و يكشف علله وزلاته وأوجاعه أمام الله والكاهن.

الكاهن كان في العهد القديم رمزاً للمسيح، أما الكاهن في العهد الجديد فهو المسيح، كقول القديس أغناطيوس. فالكاهن لا يستمع إلى الخطايا كأنه سيوصّلها إلى المسيح، كأنما المسيح لا يسمع إلا من الكاهن، بل إن المسيح هو هو الذي يقبل الإعتراف بنفسه، كما تؤمن الكنيسة وكما يصلي الكاهن: «اقبل إليك اعترافات شعبك» (*).

المسيح يسمع بأذن الكاهن، والمسيح غير محتاج إلى توسط الكاهن أو كلامه، الكاهن في وقت الإعتراف تتلاشى شخصيته ولا يسمع الإعتراف لنفسه بل يسمعه للمسيح كالمسيح.

(*) سر اعتراف الشعب ـــ القداس الإلهي.

أما الكاهن بشخصه فهو يقف في الهيكل مع الخاطيء كخاطيء مثله، يطلب الحل للخاطيء كخاطيء معه!! «عبيدك آبائي وأخوتي **وضعفي**، هؤلاء المنحنين برؤوسهم أمام مجدك المقدس، ارزقنا رحمتك واقطع كل رباطات خطايانا وإن كنا أخطأنا إليك بشيء...» (تحليل الإبن يقال في نهاية صلاة رفع البخور).

الخاطيء لا يستلم الحل من شخص الكاهن، ولكن يستلمه من شخص المسيح بفم الكاهن الخاطيء، أما الكاهن في وقت إعطاء الحل فلا يَنظر نفسه كالمسيح بل يَنظر نفسه كخاطيء، وفي وقت تقبل الحل والمغفرة، لا يُنظر إلى الكاهن بشخصه كإنسان خاطيء مثله بل يُنظر إليه كالمسيح، ولا يعطى الحل من نفسه كصاحب حل ولكنه يطلبه من الله للخاطيء ولنفسه معه دائماً «عبيدك آبائي وإخوتي **وضعفي**» (رفع البخور) «عبيدك الذين يخدمونك في هذا اليوم المقدس القمامصة والقسوس والشمامسة والإكليروس وكل الشعب وضعفي، حاللنا»، يطلبه **أولاً** من فم الثالوث الأقدس، **وثانياً** من فم الكنيسة كلها باكليروسها الحاضر والغائب **وبشعبها الحاضر والغائب**، **وثالثاً** من فم الإثنى عشر رسولاً، **ورابعاً** من فم الرسول الخاص المرسل للبلاد المصرية مرقس الإنجيلي، **وخامساً** من فم البطريرك ساويرس الأنطاكي الذي نفي من بلاده بسبب الإيمان والتجأ إلى بلادنا، **وسادساً** من فم البطريرك ديوسقوروس الذي نفي من بلادنا ومات غريباً في منفاه، **وسابعاً** من فم البطريرك أثناسيوس الذي حامى عن الإيمان كل حياته ووضع قانونه، **وثامناً** من فم البطريرك بطرس الشهيد القديس الذي مات عن الإيمان، **وتاسعاً** البطريرك كيرلس الذي حامى عن الإيمان وثبَّت دستوره، **وعاشراً** من فم باسيليوس أسقف قيسارية الذي شرح الإيمان وعاشه، **وحادي عشر** من فم غريغوريوس الذي نطق بكلمات إلهية عن الثالوث، **وثاني عشر** من فم الثلاثمائة والثمانية عشر أسقف المجتمعين من أنحاء العالم بنيقية الذين قرروا الإيمان وقانون البيعة، **وثالث عشر** من فم المائة والخمسين أسقف المجتمعين من أنحاء العالم بالقسطنطينية لتوضيح العقيدة، **ورابع عشر** من فم المائتين أسقف المجتمعين من أنحاء العالم في أفسس لتوضيع العقيدة والختم عليها، **وخامس عشر** من فم البطريرك

الزماني القائم على البيعة، وأخيراً وآخر الكل من فم الكاهن طالب الحل «ومن فم حقارتي» (*).

ثانياً، الضمير: بطلان التكفير عن الخطايا بتعذيب الجسد:

كانت الذبائح المقدمة عن الخطايا في العهد القديم عاجزة فعلاً عن إراحة ضمير الخاطيء «لا يمكن من جهة الضمير أن تُكمّل الذي يخدم» (عب ٩ : ٩). لذلك كان الخطاة دائماً، حتى و بعد تقديم الذبائح، في حالة ثقل قلب ولوم من جهة الضمير. ولم يستطع دم التيوس والعجول المسفوك أمام أعينهم أن يزيل الأثر الكئيب الذي كانت تتركه الخطية والنجاسة في قلوبهم...

ذلك ألجأ الناموس أن يفرض عليهم فرائض إضافية، مثل الصوم والتذلل والبكاء واحتناء الرأس ولبس المسوح والجلوس على التراب «أمِثْل هذا يكون صوم اختاره. يوماً يذلل الإنسان فيه نفسه، يحني كالأسلة رأسه، و يفرش تحته مسحاً ورماداً» (إش ٥٨ : ٥) حتى يواجه الخاطيء عذاب الضمير بتعذيب الجسد، و يكفر عن تعديه للوصايا بفرض وصايا إضافية على نفسه، لكي يظهر أمام نفسه وأمام الله كإنسان باغض للخطايا، نادم على التعدي، طالب وجه الله.

ولكن مهما كانت الأعمال التعذيبية التي كان يقوم بها الإنسان للتكفير عن خطاياه، فهي لا تخرج عن كونها وسائل جسدية تعمل بالجسد، في الجسد، للجسد؛ ولكن الخطيئة تلوث الروح، تهتك النفس، تدنس القلب، تفضح الضمير، فكيف تكفر الأصوام عن خطيئة النجاسة؟ أو ماذا يصنع التذلل وإحتناء الرأس ولبس المسوح والجلوس على التراب، في خطيئة الكذب على الله، أو إهمال الواجب الذي يتسبب عنه موت إبن أو إبنة أو هلاك خراف الله؟

لذلك صارت كل الأعمال الناموسية التي أكملها شعب الله قديماً، مع كل

(*) تحليل الخدام.

الفرائض والقوانين التعذيبية التي فرضها الأنبياء وقادة الشعب على أنفسهم، عاجزة عن رفع أثر الخطيئة من النفس البشرية وتطمين قلب الخاطىء وإراحة ضميره، لأنها كانت أعمالاً وفرائض جسدية: «موضوعة إلى وقت الإصلاح» (عب ٩: ١٠)، «تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتة أن تنزع الخطيئة» (عب ١٠: ١١)، «لأن دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش على المنجّسين يقدس إلى طهارة الجسد فقط» (عب ٩: ١٣).

وهكذا ظل الخاطىء في حاجة ماسة إلى **عمل روحي فائق**، يتغلغل روحه، و يشفي نفسه، ويجدد قلبه، و ينعش و يفرح ضميره...

لقد عمل الخاطىء في العهد القديم كل ما يمكن عمله للتخلص من خطيئته، وجاهد إلى أقصى غاية الجهد البشري لرفع أثر الخطيئة من نفسه وضميره، ولكنه فشل وفشل نهائياً عن بلوغ ما كان يتمناه: «لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله» (كما اعترف بطرس الرسول في مجمع أورشليم الأول أع ١٥: ١٠)، لماذا؟ لأنه اعتمد على أعمال جسدية، التي يقول عنها بولس الرسول بوضوح: «حسب وصايا وتعاليم الناس التي لها حكاية حكمة بعبادة نافلة وتواضع وقهر الجسد، ليس بقيمة ما من جهة إشباع البشرية» (كو٢: ٢٢، ٢٣).

أما الآن، فشكراً لله من أجل يسوع المسيح، لأن دمه الإلهي المسفوك يعمل روحياً فينا نحن الخطاة: «بقوة حياة لا تزول» (عب٧: ١٦). بعمل إلهي سري يتغلغل كل الكيان الإنساني حتى الأعماق، حتى مفارق النفس والروح، إلى المخاخ والمفاصل ونيات القلب.

وهذا الضمير الإنساني الملطخ بشعور الخطيئة، المعذب بالإحساس بالذنب، الذي مزقه الندم وزاده الفشل، من جراء التكفير بالمحاولات الجسدية، تمزيقاً فوق تمزيق، الآن يدخله عنصر شافي جديد، عنصر إلهي غير جسدي، غير منظور، ينفخ فيه روح حياة، و يعطيه غفراناً أبدياً وسلاماً... «دم المسيح، الذي بروح أزلي قدم نفسه لله بلا

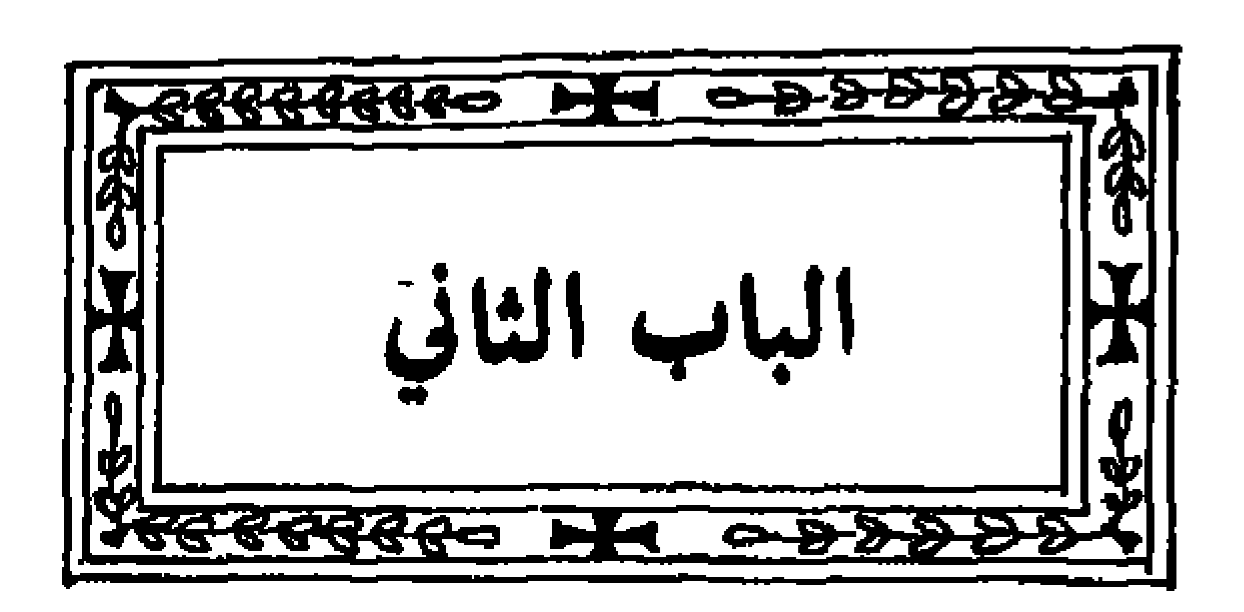
عيب **يُطهِّر ضمائركم»** (عب٩: ١٤)!!

الآن، لم يعد للتائبين الذين يتقدمون إلى الله متمسكين بدم المسيح، مجال أن يتبقى لهم شعور بالذنب وقلق وكآبة في الضمير، إذ يقول الكتاب: **«وهم مطهَّرون مرة لا يكون لهم أيضاً ضمير خطايا»** (عب١٠: ٢).

فأي شعور بالذنب، وأي إحساس بالقلق في الضمير من جراء الخطايا السالفة التي عفى عنها الله نهائياً كوعده: **«لأني أكون صفوحاً عن آثامهم، ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم فيما بعد»** (عب٨: ١٢)، إن أي شعور مثل هذا، يعتبر انتقاصاً من مقدرة المسيح في التطهير الكلي «**إلى التمام**»، وتشككاً في وعد الله. ونحن نعلم علم اليقين، بشهادة كلمة الله القاطعة، أن المسيح **«يقدر أن يُخلِّص أيضاً إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم»** (عب٧: ٢٥)!!

+ + +





النسك في الإنجيل
الأعمال التي تليق بالتوبة

الفصل الأول
الحضّ على النسك
وأعمال «ضبط الجسد» و«إماتة الأعضاء» في الإنجيل

المسيحي إنسان محارب:

الكتاب المقدس يضع الحياة المسيحية كلها في قالب نسكي... معتبراً أن الإنسان بدخوله الإيمان المسيحي يصير في الحال جندياً ليسوع المسيح، و ينطبق عليه كل مواصفات وواجبات وحقوق الجندية... إذ أن إعلان الإيمان بالمسيح هو نفسه إعلان حالة حرب ضد الشيطان، لأن المسيح جاء لينقض أعمال الشيطان: «لأجل هذا أُظهر ابن الله **لكي ينقض أعمال إبليس**» (١يو٣: ٨)، و يُنقذ المأسورين تحت سلطانه في الظلام «كي يرجعوا من ظلمات إلى نور **ومن سلطان الشيطان إلى الله** حتى ينالوا بالإيمان بي غفران الخطايا ونصيباً مع المقدسين» (أع٢٦: ١٨).

المسيحي يحارب لأن المسيح غلب:

المسيح دخل أولاً في الحرب مع الشيطان في مواقع كثيرة بعضها نعرفه و بعضها نجهله، ولكن أهمها هي موقعة الصليب التي فيها ظفر المسيح بالعدو وهزمه، إذ جعل جسده المقدس ذبيحة-حاملة لكل خطايا العالم. واشترك الشيطان في تزييف قضية الموت، دون أن يعلم أن بموت المسيح قد رُفعت الخطيئة، فرُفعت الحجة من يد الشيطان ضد العالم والناس وأسقطت الدعوى من يده...

«**إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض**، الذي كان ضداً لنا، وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب. إذ جرّد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (في الصليب)» (كو٢: ١٤و١٥).

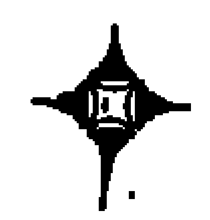
المسيح غلب الشيطان فصار الشيطان خصماً لكل مسيحي:

وهكذا أصبح **كل من يؤمن بالمسيح وينال سر الصليب والجسد المقدس، خصماً للشيطان المهزوم من المسيح**... وبالرغم من أن الإنسان يكون قد تحرر من سلطان الشيطان، وأخذ بواسطة الجسد المقدس عربون الغلبة والنصرة عليه، إلا أن الكتاب المقدس ينص أنه لا تزال هناك فرصة للشيطان أن يملك بالخطيئة مرة أخرى في أجسادنا التي ماتت (بواسطة الصليب) عن الخطية، والتي حررها المسيح من الخطايا السالفة (بالمغفرة بدمه)، حتى يستعبدنا ثانياً تحت سلطانه، **إذا أطعنا مشورته أو تخلينا عن المسيح**، «إحسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا. **إذاً لا تملكن الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته**... فإن الخطية لن تسودكم» (رو٦: ١٢-١٤).

الخطيئة تسترد سلطانها:

وهنا يوضح الكتاب المقدس أن الخطيئة ليس لها سلطان علينا كالأول، ولكن إذا أطعناها بإرادتنا فإنها تعود وتملك علينا. وهكذا يبدأ مفهوم حياة النسك في الكتاب المقدس، فمن جهة، الحرب معلنة علينا من خصم عنيد، وسلاحه هو الخطيئة التي بها يستطيع أن يسلسل الإرادة ويجر النفوس إلى الظلمة والموت... ومن جهة أخرى، ميدان الحرب مكشوف وهو الجسد الذي له بالخطيئة علاقة قديمة، وقد استوطنت فيه واعتادها فاستعبدته وتسلطت عليه...

لذلك، نسمع في الكتاب المقدس تحذيرات متكررة أن الحرب قائمة من الطرفين، من الشيطان ومن الجسد، وكل منهما منجذب إلى الآخر، والخطر كامن في الطرفين؛ فمن جهة، مطلوب أن نحذر الشيطان نفسه؛ ومن جهة، مطلوب أن نحذر الجسد الذي فينا.



خصمان عنيدان متعاونان ضد الإنسان:

١ ــ أما من جهة الشيطان:

فالكتاب يصفه بخصم ماكر مخادع، يتشكل و يتكون و ينتهز الفرص ويختار المناسبات ويمهد لها، و يفاجىء و يباغت مستخدماً كل أسلحة الهجوم والغدر.

(أ) يصفه الكتاب تارة بصورة وحش منقض «اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو، فقاوموه راسخين في الإيمان» (١بط٥: ٨و٩)، وغالب الظن، **يكون الشيطان هنا بمثابة روح غضب ينفثها في قلب الإنسان، مع عداوة وانتقام، أو ظلم أو افتراء أو قساوة أو سلب.**

(ب) وتارة يصفه بصورة روح خبيث يتسلل داخل القلب «فبعد اللقمة دخله الشيطان» (يو١٣: ٢٧). وغالب الظن، يكون هنا **كروح خبث وخديعة وخيانة وكذب، ورياء ونميمة وحسد وتحريض.**

(جـ) كما يصفه بفكرة تطغى على العقل «لئلا يطمع فينا الشيطان لأننا لا نجهل أفكاره» (٢كو٢: ١١). وهنا يكون بمثابة **روح ضلالة وكبرياء وتعليم كاذب، وتحزب وتمسك بالرأي الخاطىء، والمغالاة واليأس وتصور الشر والتجديف.**

(د) كما يصفه الكتاب بالقدرة على التشكل بملاك نور: «ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور، فليس عظيماً إن كان خدامه أيضاً يغيرون شكلهم كخدام للبر» (٢كو١١: ١٤). وهنا قدرة الشيطان على **تزييف روح الخدمة والرعاية، مستخدماً الشكل المحترم والزي المقدس والألقاب المبجلة والصوت الهادىء والكلمات الروحية والآيات الكريمة.**

(هـ) كما يصفه الكتاب بملاك مؤذي يضرب الجسد ويمرضه «أعطيت شوكة في الجسد، **ملاك الشيطان ليلطمني** لئلا أرتفع» (٢كو١٢: ٧). وهنا يظهر بموقفه الذي ظهر فيه مع أيوب، **كحاسد للذين يكرسون حياتهم للطريق المقدس** واختيار الحياة التأملية.

كما يذكر الكتاب كيف عقد لسان الأخرس وأصم أذنيه وآذى عقله، وأقعد إنساناً ثمان وثلاثين سنة، ويبّس ذراع آخر، وأحنى ظهر إمرأة، وصرع آخرين، وسكن كجماعة من سبعة شياطين في امرأة، وعذب كثيرين بأنواع لا حصر لها من الأتعاب والأمراض والمضايقات. وكل هذه الحروب يذكرها الكتاب لندرك مقدار العداوة المتأصلة في الشيطان من جهتنا، حتى لا نستهين بشره أو نطمئن لمشوراته المهلكة. ويكفي شهادة الرب ضده: «ذاك كان قتّالاً للناس من البدء... كذاب وأبو الكذاب» (يو٨: ٤٤ــ٤٥).

٢ ــ أما من جهة الجسد:

فالكتاب المقدس يعتبره بوضوح منتهى الوضوح، أنه إذا لم يُضبط يكون خصماً عنيداً للإنسان أشر من عشرة أعداء خارجيين، وكل عضو فيه يصير مصدراً لألف خطيئة...

فاللسان يصفه الكتاب هكذا:

«فاللسان نار. عالم الإثم. هكذا جُعل في أعضائنا اللسان الذي يدنس الجسم كله ويُضرم دائرة الكون، ويُضرَم من جهنم. لأن كل طبع للوحوش والطيور والزحافات والبحريات يُذلَّل وقد تذَلل للطبع البشري، وأما اللسان فلا يستطيع أحد من الناس أن يذلّله. هو شر لا يُضبط، مملوء سماً مميتاً. به نبارك الله الآب وبه نلعن الناس الذين تكوّنوا على شبه الله» (يع٣: ٦ــ١٠).

والعين يصفها الكتاب هكذا:

ــ «إن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً» (مت٦: ٢٣).

والقلب يصفه الكتاب هكذا:

«القلب أخدع من كل شيء، وهو نجيس من يعرفه» (إر١٧: ٩).

أما بقية الأعضاء فيصفها الكتاب أنها مرتع خصب للخطيئة:

«فإني أعلم أنه ليس ساكن فيَّ، أي في جسدي، شيء صالح... أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني و يسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي» (رو٧: ١٨و٢٣).

وأخيراً، يختم الكتاب هذا كله بقوله:

«ويحي أنا الإنسان الشقي، من ينقذني من جسد هذا الموت» (رو٧: ٢٤)!!

خطة الخلاص من سلطان الشيطان والجسد:

هذه هي الصورة الصادقة التي يرسمها الكتاب المقدس على مدى صفحاته للإنسان، وهو واقع بين خصمين عنيدين: الشيطان والجسد. ومنها ينطلق الكتاب ليرسم أمام الإنسان خطة الخلاص ووسيلة النجاة والنصرة الكاملة الأكيدة. ويحددها باتجاهين واضحين يشكّلان الحياة المسيحية النموذجية في منهجها النسكي المتكامل.

أولاً ـ تجاه حرب الشيطان:

الخلاص بأسلحة غيربشرية، النسك السلبي:

فأولاً وقبل كل شيء يضع الكتاب آية القمة أمام عين كل قارىء وهي: «**وهم غلبوه ,,بدم الخروف،، ,,وبكلمة شهادتهم،،**» (رؤ١٢: ١١).

إذن فبالرغم من أن **الحرب حربنا، إلا أننا نحن لا نحارب بأنفسنا**، أسلحتنا ليست منا، شكراً لله. **دم المسيح سلاحنا، والشهادة لإسمه المخوف** هي نصرتنا.

الكتاب يمثل المحارب المسيحي متقلداً أسلحة ليست بشرية، ولا هي من عمل إنسان، ولا تصلح لمحاربة إنسان. **فالحقوان** عليها منطقة «الحق»، **والذراع** عليه درع «البر»، **والرجلان** عليها حذاء اسمه «استعداد إنجيل السلام» (أي المشي للبشارة)، **وفوق الجسد كله** «ترس الإيمان» الذي يصلح لإطفاء جميع سهام الشرير الملتهبة، وعلى **الرأس** خوذة «الخلاص»، **وفي اليد** سيف «الروح الذي هو كلمة

الله »... وأما فن الحرب نفسه من جهة التقدم والتأخر والحركة والعمل، فيلخصه الكتاب في حركة واحدة قلبية: «مصلين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح» (أف ٦: ١٠ـــ١٨).

هذه الأسلحة لو دققنا النظر فيها نجدها كلها مصنوعة من دم المسيح، وقوتها وفعلها ورعبها بالنسبة للعدو لا تعتمد على مقدرتنا الشخصية، ولا على جهدنا الذاتي أو قداستنا أو برنا أو تقوانا أو أعمالنا جسدية كانت أم روحية، لأنها كلها أسلحة غير بشرية بالمرة، وإنما تعتمد على كونها أسلحة المسيح بشخصه، ونحن نستمدها منه رأساً في كل لحظة وفي كل مناسبة وعند كل ضيقة أو ضرورة، وبقدرما تكون مستمدة منه، أو بالحري ممسوكة معه، وكأنه يحارب بها معنا، بقدرما نغلب بها...

فسلاح «الحق» هو شخص يسوع المسيح نفسه. فتصور لو أن المسيح يحارب معنا كيف تكون النصرة؟... أي الثقة واليقين به و بوجوده.

وسلاح «البر» هو «بر الله» الذي ظهر بدون الناموس «بر الله بالإيمان بيسوع المسيح» (رو٣: ٢٢).

وسلاح «إنجيل السلام» هو كلمة المصالحة التي صالحنا بها المسيح مع أبيه فصرنا في سلام مع الله (رو٥: ١، ٢ كو٥: ١٨و١٩).

وسلاح «الإيمان» هو عطية الله وهذا ليس منكم (أف٢: ٨)، الذي به إذ نؤمن بالله نغلب.

وسلاح «الخلاص» هو الخلاص الذي تم مجاناً بسفك دم المسيح «بالنعمة أنتم مخلّصون» (أف٢: ٥)، «متبررين مجاناً بنعمته» (رو٣: ٢٤).

وسلاح «سيف الروح» هو كلمة الله التي هي أمضى من كل سيف ذي حدين، وهي قوية في حد ذاتها وفعالة (عب٤: ١٢).

والكتاب ينص أن المحارب المسيحي عندما يتقلد أسلحة المسيح المستمدة منه شخصياً ويحارب بها في حضرته، فنصرته مؤكدة، لأن الكتاب يقول أن أسلحتنا ليست جسدية، إنما روحية، والأسلحة الروحية يستحيل أن تفشل.

«لأننا وإن كنا نسلك في الجسد لسنا حسب الجسد نحارب. إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية بل قادرة بالله على هدم حصون. هادمين ظنوناً وكل علو يرتفع ضد معرفة الله ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح» (٢كو١٠: ٣و٤و٥).

وبذلك يقدم الإنجيل النصف الأول من المنهج النسكي، وهو التقلد بأسلحة روحية خالصة، نستمدها من المسيح وبواسطته مجاناً، لمحاربة العدو الذي يفوق قوتنا البشرية على وجه العموم... وهذا هو العمل الروحي السلبي، أي الذي نكتسبه من الله دون جهد ذاتي من أنفسنا. وبالتمرين على هذه الأسلحة، يستطيع الجندي الأمين الصالح، أن يشهر السلاح الروحي المناسب في حينه، ويرد هجمات العدو الظاهرة سواء كانت في الفكر أو القلب أو الجسد...

أما الهجمات الخفية، فالصلاة المتواترة تفعل فعلها، حيث تسهر النعمة على الإنسان لترد عنه شروراً وفخاخاً ومحناً كثيرة، يدبرها العدو وتُفسدها النعمة دون أن ندري عنها شيئاً...

وكختام لهذه المعونة الإلهية المجانية التي صارت لنا بربنا يسوع المسيح، يقرر الكتاب المقدس أن الله يعمل أيضاً بنفسه معنا بصفة مؤكدة، ليضع حداً نهائياً سريعاً لهذه الحرب، في صفنا: «وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعاً» (رو١٦: ٢٠).

ثانياً: تجاه حرب الجسد:

النسك الإيجابي: الجهد الذاتي بالإرادة الحرة.

في الكتاب، نجد أن الرب بنفسه هو الذي وضع الحجر الأساسي في بناء المنهج

التجردي النسكي، القائم على ضبط الجسد بالجهد الذاتي والإرادة الحرة الحاسمة.

هي كلمات من نور: «إن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك، خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان. وإن أعثرتك عينك، فاقلعها والقها عنك، خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تلقى في جهنم النار ولك عينان» (مت١٨ :٨و٩).

بهذه الكلمات يكون المسيح قد رفع المنهج النسكي إلى أعلى درجة من استخدام الجهد الذاتي بالإرادة الحرة القاطعة، دون أي مماحكة، حتى لا يطلب حلاً وسطاً أو فدية!... حيث جعل المسيح الخصومة بين الإنسان والعثرة المؤدية إلى الخطيئة والهلاك، تبلغ حد التضحية بسلام الجسد وراحته وصحته بصورة لا لبس فيها ولا إبهام.

هذه هي الصورة العملية التي فصل بها المسيح بين المنفعة الجسدية والغاية الروحية، التي من أجلها اعتمد الإنسان المسيحي ليبلغ الحياة الأبدية.

وقطع اليد والرجل وقلع العين، توضيح بوجهة نظر الله، فيما يمكن أن تبلغه جدية السعي في القداسة والطهارة وحفظ السيرة وضبط الجسد والحواس، لبلوغ الحياة معه.

وبهذا الحد، يكون الجهاد ضد الجسد، ليس موكولاً لتقديرات شخصية، أو حلول متوسطة يقترحها الإنسان لنفسه أو لغيره، تتناسب مع أهواء الذات أو مزاج الجسد.

فالمسيح جعل حداً واحداً ينتهي عنده وينتهي إليه الجهاد إذا تطلب الأمر ذلك، عند الجميع وبلا استثناء، ووضعه بهذه الصورة الجادة والمحرجة، حتى يختار عندها الإنسان بين الحياة والموت... وهذا يوضح الخطورة القائمة في حرب الجسد بلا جدال...

هذا التعليم الإلهي فذ في نوعه وخطير، فهو يُلهب الإرادة العاجزة، و يرفع من

معنويات الضعيف المتخاذل، ويُشعل نار الغيرة نحو القداسة حتى في القلب الجبان.
لأنه إذا وضع الإنسان الموت أمام عينيه، كحد للجهاد الموضوع أمامه إزاء أي عثرة مهما تفاقم شرها واعتز جذبها وسلطانها واغواؤها، فإنه حتماً سيسود عليها ويطأها تحت قدميه...

إذاً، فالجهاد مع الجسد ليس كالجهاد مع الشيطان، هنا الإنسان مسئول عما في الإنسان، ومطلوب من الإرادة أن تؤدي أقصى ما لها من جهد وسيادة...
المسيح لم يقترح وسائل لضبط شهوات العين أو السيطرة على عثرات بقية الأعضاء، ولكنه كشف المسئولية الواقعة على الإرادة لضبط العضو المعثر من جهة، ومن جهة أخرى أوضح الإمكانية الكائنة في صميم هذه الإرادة عينها لوقف العثرة. وبعد ذلك ترك للإنسان أن يباشر عمله وجهده وسلطانه، بكل ما عنده من تصميم وعزم وغيرة...

وهذه الصورة النسكية الرائعة التي رسمها الرب لنا في جهادنا، مرسومة أصلاً من منظر الصليب، فاليدان والرجلان سُمّرتا، والعين انطفأ نورها ثمناً لعثرة الإنسان، وفدية عن الخطيئة التي تملكت على الجسد الضعيف...

الجهاد النسكي الإيجابي الذي بالإرادة الحرة، يستمد قوته من الشركة العملية في حياة المسيح وممارسة الصليب... مهما بلغ حتى إلى حدود الموت...

«حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا» (٢ كو٤: ١٠).

المسيح لم يكن يكره جسده الذي أسلمه للموت... ولكنه أبغض الخطيئة، ففرط ـــ من أجلها ـــ في الجسد!!

الجهاد النسكي في الإنجيل طعنة للموت وغلبة للحياة الأبدية، وليس شهوة إماتة مجردة.
ـــ **«إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد، فستحيون» (رو٨: ١٣).**

ـ «من آمن بي ولو مات فسيحيا» (يو١١: ٢٥).

الجهاد النسكي في الإنجيل يتجاوز معنى الجسد ليبلغ إلى الخطيئة:

الجسد عند المسيحي هو هيكل لله، والروح القدس يسكن فيه.

بهذا يتجاوز معنى الجهاد ضد الجسد ليصبح ضد الخطيئة، التي تريد أن تطرد روح الله من الجسد لتسكن هي فيه. الذي يفسد الجسد هو الخطيئة، أي الموت وليس أي شيء آخر...

لا توجد عداوة أصلاً بين الجسد و«الروح القدس»، ولكن بدخول الخطيئة يبتدىء الجسد يشتهي ضد الروح، و يبتدىء «الروح القدس» يشتهي ضد الجسد المُعثَر وكل منها يقاوم الآخر.

العداوة هنا متأصلة بين الروح القدس والخطيئة، لأنها قائمة طبيعياً بالشيطان. والشيطان يعمل للموت، أما الروح القدس فيعمل للحياة الأبدية.

الإرادة الحرة إذا تقدست، تنحاز للروح القدس ضد الجسد، إذا مال الجسد للخطيئة... لأن الإرادة الحرة مستمدة من الله والوصية.

إذن، صرامة الإنجيل ضد الجسد، هي في الواقع اتجاه روحي ضد الشيطان، ليس القصد منه أن يسلب الجسد شيئاً، ولكن ليعطيه شيئاً؛ يعطيه الحياة والحرية.

الجسد بحياته بالخطيئة يفقد نصيبه في القيامة للحياة الأبدية، وتتوطد فيه صلات الموت واللعنة... **«إن عشتم حسب الجسد فستموتون»** (رو٨: ١٣).

أما إذا أمتنا الجسد عن الخطيئة، بمنتهى الإرادة والصرامة، فإننا نوصله بالحياة الأبدية ونغرس فيه روح القيامة «وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتة

أيضاً بروحه الساكن فيكم» (رو٨: ١١).

منهج الكتاب المقدس تجاه الغرائز:

بنفس الطريقة التي أسس بها السيد المسيح المنهج النسكي تجاه الأعضاء العاثرة، استمر الكتاب يكشف الطرق التي ينبغي أن تقاوم بها الخطية، وهي الكامنة في إغواء الغريزة قبل أن تتمكن من الأعضاء وتعثرها وتستعبدها لتسود عليها.

وفي القمة يضع السيد المسيح أعلى نموذج لمقدار الكف عن مسايرة الغرائز، الذي يمكن أن يبلغ إليه الإنسان، الذي يسعى لدخول ملكوت الله:

«يوجد خصيان **خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات**، من استطاع أن يقبل فليقبل...» (مت١٩: ١٢).

حيث قطع الأعضاء هذه، ليس لكونها في حالة عثرة، **ولكن لكي لا تكون قط في حالة عثرة! هنا استعداد وتأهب، والقطع بالنية قطعاً مطلقاً**...

في هذا العرض النسكي للمثل الأعلى في قبول مفهوم مقاومة الخطيئة لغاية إيجابية مقدسة وهي دخول ملكوت الله، يكون المسيح قد وضع أساس المنهج كله في مقاومة العثرات والخطيئة...

والكتاب بعد ذلك يسترسل على نفس الخط:

- «حسن للرجل **أن لا يمس امرأة**» (١كو٧: ١).
- «**اهربوا** من الزنا» (١كو٦: ١٨).
- «**اخرجوا** من وسطهم **واعتزلوا**، يقول الرب، **ولا تمسوا نجساً فأقبلكم**» (٢كو٦: ١٧).

أساس منهج النسك في الإنجيل، أن يصعد بالجسد فوق غرائزه:

الكتاب المقدس هنا لا يحض على منع الزواج، إنه لا يريد أن يسلب الجسد

شيئاً، ولكنه يؤسس طريقاً للقداسة يصعد بالجسد فوق طبيعته، وبالتالي يؤمّنه ضمناً ضد الخطيئة التي تخدعه كأنها من طبيعته.

«يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات» (مت ١٩ : ١٢)!... هنا الرب لا ينهى عن الزواج، إنما يعرض حالة جسد اخترق حدود الطبيعة ووطأ أعوازها وغرائزها، وهو إذ يستحسن هذا ويحض عليه ليس لأن الطبيعة نجسة أو أن غرائزها شريرة، حاشا، ولكن لكي يوضح أن فوق الغرائز توجد حياة أعلى، وبدون هذه الغرائز يمكن أن يبلغ الإنسان إلى ملكوت الله...

هنا الرب يريد أن يلقي نوراً يفصل به بين أعواز الغريزة وحياة الكمال المسيحي... الكمال المسيحي ليس مستعبداً للغريزة ولا لأعواز الطبيعة. الإنسان المسيحي حر من الغريزة وحتميتها الطبيعية. الغريزة سيدة الجسد، والجسد عبد لها، أما «ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» (رو٨ : ٢).

النسك يرفع الإنسان من سلطان الغريزة
المؤدي للموت، إلى حرية الروح المؤدي للحياة:

الإنسان المسيحي لا يعيش بعد تحت أعواز الطبيعة باضطرار، لأن المسيحي أخذ حياة فوق الموت وبعده، وهي تسود على الجسد وتقيمه من الموت. الحياة في المسيح يسوع تحدّي للموت بكل عوامله الجسدية والنفسية والعاطفية... الموت ليس نهاية حياة لمن يعيش في الرب، ولكنه بداية حياة تخلو نهائياً من ظل الموت وتهديده الكاذب. **منذ أول لحظة نعيش فيها حياة حقيقية مع الرب نكون قد انتقلنا من سلطان الموت إلى حرية الحياة معه.**

المسيح برفعه للإنسان فوق الغريزة، لم يقصد أن يقيّم ملكوت الله، ولكنه قصد أن يقيّم الإنسان ذاته... الإنسان، بوضعه الجسد تحت اضطرار الغرائز

وحتميتها الطبيعية المطلقة، لا يفقد فقط ملكوت الله، ولكنه يفقد نفسه. الله خلق الإنسان ليسود على الطبيعة، سواء في خلائقها أو في غرائزها، التي يحمل صورتها في جسده، تمهيداً ليسمو بها جميعاً...

حياة الإنسان ليست في غرائزه،
بل في المسيح الذي هو عقل الإنسان الجديد:

الغريزة بالنسبة للجسد هي عقل الجسد الذي يوجهه و يتحكم فيه. حياة الحيوان تديرها الغريزة، وهي كفؤ لتؤهله أن يعيش و يتكفل بنفسه... تسوقه حواسه بواسطة اللذة الكامنة في الغريزة، فهو حينما ينظر يشتهي، وحينما يجوع يأكل. وحينما يأكل يخصب... وحينما يخاف يهرب.

الإنسان لا يعيش فقط لينظر و يشتهي ويجوع ويخصب ويهرب...
ــ «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» (مت ٤ : ٤).
ــ «من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (مت ٥ : ٢٨).
ــ «لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم!... طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤ : ٣٢، ٣٤).
ــ «يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات» (مت١٩ : ١٢).
ــ «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد» (مت ١٠ : ٢٨).

الجسد والغريزة تنتهي عند الموت، الإنسان لا ينتهي عند الموت... إن كانت الخطية هي شوكة الموت التي جاء الرب وكسرها بالقيامة، فالغريزة هي شوكة الخطيئة التي كسرها الرب وهي في مهدها بتعاليمه ضد شهوة الجسد...

الغريزة أصلاً تعمل باللذة الحسية لتستدرج الجسد والإرادة لتؤدي الوظيفة الحيوية للجسد، كالأكل والراحة والنوم والإخصاب، ولكن الخطية تقتحم هذا التضامن الطبيعي بين الغريزة والجسد، وتستلف اللذة لتعمل بها لحساب هوى النفس

الخارج عن مصلحة الجسد!!

المسيح وقف بين الإنسان ونفسه، وفصل بين الجسد وغريزته. قَمْع الغريزة لا يبطل الإنسان ولا يلغيه... قلع العين وقطع اليد والرجل لا يُفسد هيكل الإنسان، لأنه لا يفسد هيكل الإنسان إلا الخطية وحدها.

قَمْع الغريزة في الإحجام عن التلذذ أو إضعافها بالجوع أو قطعها جملة بالإخصاء، لا يفسد هيكل الجسد، الجسد تفسده الشهوة إذا حبلت وولدت خطيئة... حياة الإنسان ليست في سلامة جسده، ولا قوته في كمال صحته ولا في طول حياته أو حكمته. حياة الإنسان بكلمة الله تقوم، وسلامته في نصرته على جسده وقوته في ضعفه، وطول حياته في غلبته للموت...



النسك في التفسير الكنسي (الإكلسيولوچي)
خلع العتيق (إيجابي)، ولبس الجديد (سلبي)

سر المعمودية يحوي كل المفهوم النسكي على مستوى إلهي؛ فهو يتضمن خلع الإنسان العتيق ولبس الإنسان الجديد (المسيح): «كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح»، «أن تخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور، وتتجددوا بروح ذهنكم؛ وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (غل٣: ٢٧، أف٤: ٢٢).

(أ) هذا «الخلع» هو العمل الإيجابي في الحياة المسيحية، ويختص باستخدام كل «الجهد الذاتي»، مع كل «الإرادة الحرة»، و«تعبئة» كل طاقات العقل والتفكير والعاطفة، لمقاومة عوامل الموت التي ملكت على الجسد سابقاً، والتي لا زالت تمتد آثارها على الأعضاء كحالة استعباد وعادة. هذا الخلع يتم بصورة سرية إلهية فعالة في سر المعمودية، و يتجدد و يتشدد و يكمل على طول المدى في سر التوبة، لأن التوبة هي تجديد المعمودية.

(ب) أما «لبس المسيح» فهو العمل «السلبي» الذي به نتقبل المسيح ــ دون جهد ذاتي ــ إنما كهبة ونعمة: النور والبصيرة والسلام الداخلي، والمحبة التي تفوق العقل، والصبر الكامل، والعزاء القلبي، والفرح الذي يملك وقت الشدة، واحتمال الضيقات والظلم والتعيير، وبقية مواهب الله الثمينة المعطاة بالروح القدس كثمار لحياة المسيح فينا. وهذا اللبس وإن كان يتم للمرة الأولى في سر المعمودية: «كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح»، إلا أن تجديده ودوامه يتم بسر الإفخارستيا.

خلع الإنسان العتيق ولبس حياة المسيح، عملية واحدة متحدة متآزرة متعاونة مستمرة مدى الحياة: اصطلح عليها التقليد الآبائي بكلمة

((Synergy = συνεργία)) أي توافق في العمل.

الأولى بالثانية تقوم، وبدونها لا يمكن أن توجد.
والثانية بالأولى تدوم، وبدونها لابد أن تنحل وتتعطل.

في سرّي التوبة والإفخارستيا يكمل الـ Synergy :

التوازن بين العمل الإيجابي والعمل السلبي، أي بين خلع الإنسان العتيق ولبس المسيح، تمنحه الكنيسة بواسطة سرّي التوبة والإفخارستيا: التوبة المستمرة خلع، والتناول المستمر لبس، وتآزرهما معاً بانسجام وديمومة بدون انقطاع هو جوهر الإصطلاح الآبائي Synergy ، حيث التوبة تقوم على الجهد الذاتي في مراجعة الضمير وفعل الندامة وضبط الجسد وقمع الشهوات المختلفة والإعتراف بكل خطية. والكنيسة تختم على الجهد الإيجابي بإعطاء سر الغفران في الحل وفي الإفخارستيا، الذي هو ثمرة التوبة وجزاؤها، والذي به تكون التوبة ذات فعل جوهري سري يسهّل خلع الإنسان العتيق أي إماتة شهواته؛ وحيث التناول يكون بمثابة استمرار لحياة المسيح فينا، أي أخذ الغلبة والنصرة بها على الموت والجحيم والشيطان، وإبطال سلطان الخطيئة المؤدي إلى الهلاك... فالكنيسة حينما تجتمع حول الإفخارستيا، تمثل شعب الله الذي جاز البحر الأحمر، أي الموت، وعبر إلى الشاطىء، أي الحياة، وهزم فرعون، أي الشيطان، والكل يسبح تسبحة الغلبة والخلاص، تمهيداً للغلبة الأخيرة والخلاص النهائي... الجسد المقدس يُعطى ليس بالرمز، ولكن بالحقيقة، هذا العبور الدائم من الموت إلى الحياة وغلبة الشيطان مع فرح وبهجة وتهليل قلبي...

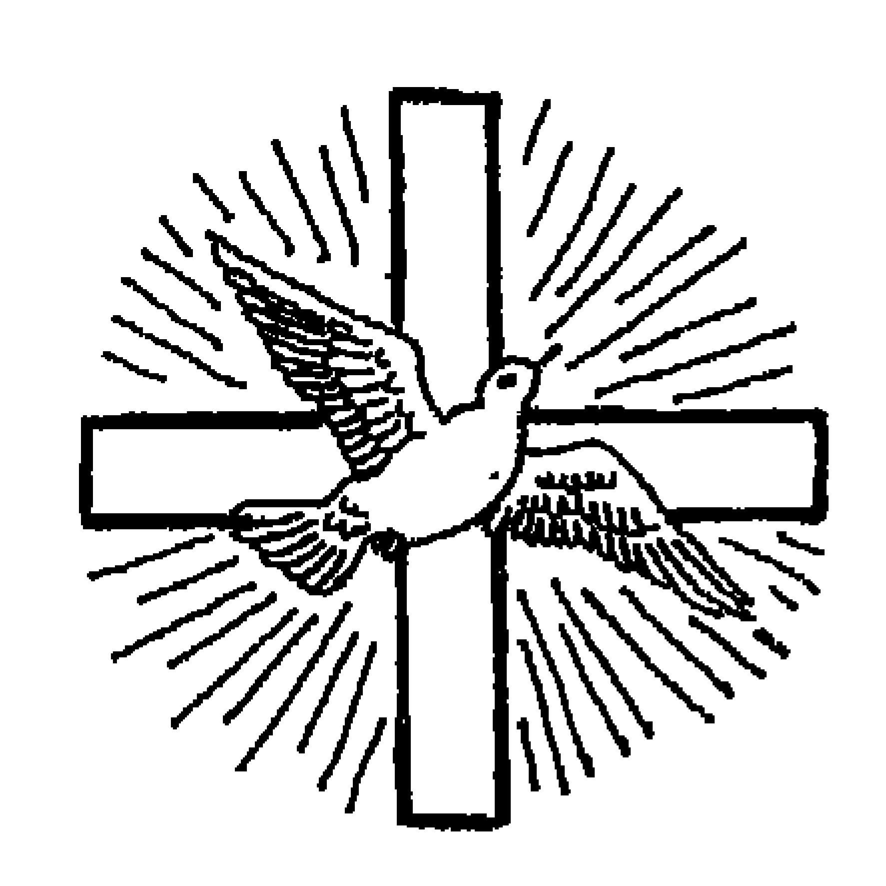
الكنيسة ترى أن حياة الفرد معرضة دائماً للسقوط، وأن العدو يتربص بأولادها ليل نهار، وأن الخطية لا تكف عن مناوأة الجسد. **لذلك هيّأت سر التوبة بصفة متكررة، في تقرير فصول للصوم على مدار السنة كفرص محددة لتفتيش القلب ومراجعة الضمير، وجعلت المغفرة رهن كل اعتراف قلبي وندم صادق، ثم جعلت من سر الإفخارستيا، سواء في أثناء الصوم أو بقية الأيام، حالة قيامة**

داخلية مستمرة في القلب، تتناسب مع هبة القيامة التي تهبها النعمة مجاناً بحياة المسيح في سر الإفخارستيا!!

واستعداد الكنيسة لتكرار سر التوبة تكراراً غير محدود غير منتهى، يحمل صورة جوهرية لحقيقة تكميل المغفرة التي ضمنها الله لنا بآلام إبنه الوحيد.

كذلك، فتكرار سر التناول تكراراً غير محدود غير منتهي، يحمل صورة جوهرية لحقيقة تكميل النصرة التي أكملها الله لنا على عدونا وفي جسدنا بالقيامة من الأموات.

الكنيسة أعطت بتكرار التوبة والتناول قوة للرجاء في قلوبنا لا تنتهي... لنتابع المسيرة حتى النهاية.



النسـك في التفسير اللاهـوتي

(أ) التجسد الإلهي بحد ذاته يؤخذ كأعلى مفهوم لعمل نسكي، إذ يحمل أقصى حالة اتضاع ممكنة، هذه أتمَّها ابن الله في ذاته بإخلاء إرادي من كل مجد اللاهوت ولبس صورة عبد متضع، خادم، مرفوض...

ومن جهة أخرى وكنتيجة مباشرة للإخلاء، فإن اتحاد المشيئة البشرية بالمشيئة الإلهية اتحاداً كاملاً طابق فيه المسيح إرادة الإنسان لإرادة الله مطابقة كلية، يُعتبر في حد ذاته عملاً نسكياً بمفهوم الطاعة المتجردة التي أثبت بها بصورة قاطعة بنويته لله الآب عملياً:

لأن النسك هو العمل المستمر لمطابقة المشيئة والإرادة البشرية لمشيئة وإرادة الله. هذا التعريف يضبط العمل النسكي نفسه، ويجعل كل نشاط منه لا يطابق مشيئة الله، خطأً عقيدياً، باعتبار أن الحياة المسيحية هدفها النهائي الإتحاد بالله، هذا الإتحاد يبتدىء من أول لحظة في الحياة مع الله **بواسطة إطاعة الوصية، كمحاولة لإخضاع مشيئة الإنسان لله إخضاعاً ينمو شيئاً فشيئاً حتى يصير مطابقاً لها.**

وبذلك يصير مفهوم النسك من وجهة نظر لاهوتية هو:

أولاً، تمهيد عملي لا غنى عنه لبلوغ حالة الإتحاد بالله، بواسطة تهيئة الطبيعة البشرية **بالإخلاء المستمر من كل كبرياء أو عظمة أو مجد بشري كاذب، لكي تكون متضعة على مستوى تجسد ابن الله، فتصير مناسبة ومستعدة للشركة مع الله...**

وثانياً، رفع حالة العبودية التي يعيشها الإنسان بعيداً عن الله إلى حالة بنوية له، بالإجتهاد الدائم في طاعة وخضوع حتى الموت، لتكميل مشيئته بكل وسيلة

ممكنة، واحتمال كل ضيقة وتجربة توضع في طريقه، ليثبت أنه جدير ببنوة المسيح وميراثها، ويتم ذلك بشهادة الروح القدس في قلب الإنسان وضميره، على حد قول بولس الرسول: «لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون، ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون. لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبنّي الذي به نصرخ ياأبّا الآب. الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله» (رو٨: ١٣ــ١٦).

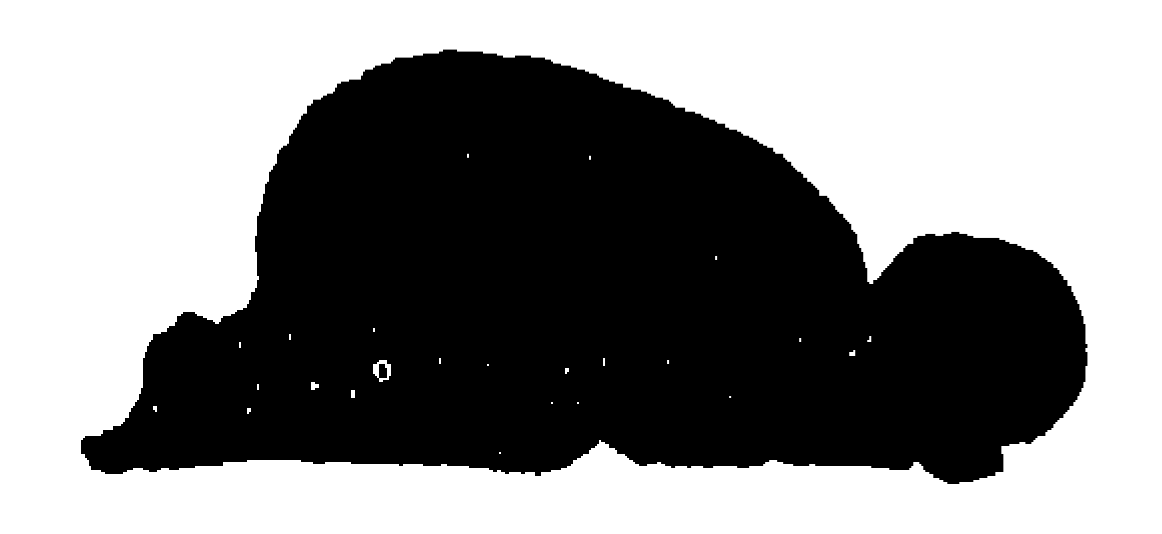
(ب) النعمة والإجتهاد الذاتي في العمل النسكي:

الحياة النسكية بالتحديد اللاهوتي، تمهيد عملي لحالة اتحاد بالله، وفتح لطريق الإنسان ليرتقي من عبودية الجسد إلى حرية أولاد الله، أي إلى بنوة كاملة في المسيح، أي أن لها هدفاً محدداً... هو الإتحاد بالله والبنوية له.

هذا الهدف يبدو لأول وهلة أمام كل إنسان خاطىء، أنه أمر غير معقول بل ومستحيل وفائق التصور. وهذا الشعور صادق وحق، لأن الحياة النسكية لا تعني إطلاقاً جهد الإنسان الذاتي فقط، وإلا فحتى العبودية لله مستحيلة...

الحياة النسكية عمل إيجابي وعمل سلبي، أي: شيء نحصل عليه بالجهد، وشيء نحصل عليه بدون جهد... الذي نحصل عليه بالجهد هو مكتسب بالإرادة، والذي بدون جهد موهوب لنا من قبل الله بالنعمة.

كل فضيلة من الفضائل لها حد إيجابي تنتهي عنده، وحد سلبي تبتدىء منه.

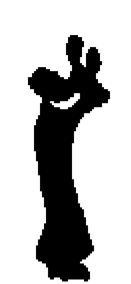


الإجتهاد والنعمة في اكتساب فضيلة المحبة:

فالمحبة يمكن أن تمارسها وتجتهد في تتميم واجباتها بالنسبة للناس والله بدون أي عائق وبدون أية مساعدة من الناس، وفي أي لحظة تريد أن تبتدىء فيها أي عمل محبة يمكن أن تبتدئه بإرادتك وحدك... ولكن مهما أوتيت من قدرة وإخلاص واستعداد وإرادة، فإن محبتك تقف عند حد معين لا يمكن أن تتخطاه، هذا الحد مرتبط بإمكانية الإنسان المحدودة وبتدخل ضعفات كثيرة غير مباشرة تحد من انطلاقه في المحبة. عند هذا الحد تبدو المحبة دائماً أنها اجتهاد شخصي مشكور، ولكن تُرى بدون جدال أنها ناقصة...

ولكن الحادث أن الإنسان لا يقف عند هذا الحد، إذ أن نعمة الله لا تكف عن عملها في قلب الإنسان المجتهد، حيث يستقبل الإنسان روح المحبة الذي يرفع في الحال من قيمة المحبة وحرارتها وفيضها في القلب، ويسخر كل القدرات المتخلفة والطاقات المتعطلة في الإنسان لتخدم المحبة، ويبدو الإنسان محمولاً بقوة جارفة ليحب بدون قيد ولا شرط، وبصورة يبدو فيها للآخرين بوضوح أن الإنسان واقع تحت تأثير إلهي فائق، وأن قوة إلهية عظيمة تعمل فيه... حتى أنه لا توجد أية عداوة تستطيع أن تحجز محبته عن الناس.

فإذا عدنا إلى الحدود الإيجابية لفضيلة المحبة، أي نهاية عمل الجهد الذاتي بالإرادة، نجد أن شعور الإنسان عند هذه المرحلة بالذات، يكون شعوراً ناقصاً جداً بالنسبة لمطالب محبة البنين، ولا حتى بالنسبة للعبيد إذا كان خالياً من عمل النعمة. أما إذا انسكب روح المحبة في قلب الإنسان، فإنه يتزكى في الحال شعور البنوية في الإنسان، مما يلهب قلبه ويأسره ويشعره بقربه الشديد من الله.



الإجتهاد والنعمة في اكتساب فضيلة الإتضاع:

وكذلك في فضيلة الإتضاع، فالجهد الإنساني فيها ينتهي أقصى ما ينتهي عندما يشعر الإنسان أنه لا شيء، وأنه غير محسوب عند نفسه، وأنه أقل الناس جميعاً. وحتى عند هذا الحد لا يكون الإنسان راضياً عن نفسه، ولا يكون الناس كلهم راضين عنه، إذ يبدو أنه متكلف يحاول أن يجرد الإنسان من إنسانيته، هذا إذا خلا كل جهاده السابق من عمل النعمة...

ولكن، إذا ما بدأت النعمة عملها في القلب، ووهب الله للإنسان روح اتضاع ـ أي بروحه القدوس ـ فإن الإنسان يشعر في الحال أنه أصبح يملك شيئاً جديداً، وتبدو هيبة الإتضاع فيه جليلة بحيث تزيد بَشَريته تكريماً وتجعل إنسانيته فوق الإنسانية الطبيعية، حتى يكاد يحس الناس أن الله يتكلم ويعمل فيه. وهنا يصير اتضاعه جاذباً لقلوب الناس معلناً عن الله الذي فيه.

ولكن ما هي الحدود التي ينتهي فيها جهد الإنسان الذاتي والحدود التي يبدأ فيها عمل النعمة؟ وأيها أسبق في العمل، جهد الإنسان أم عمل النعمة؟ وأيها أكثر عملاً؟

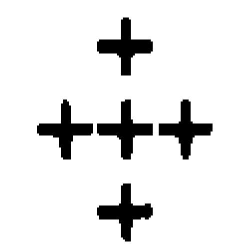
هذا هو الجدل اللاهوتي الذي دخلت فيه الكنيسة وعانت منه الحياة النسكية معاناة شديدة، دون أي طائل وبلا أي منفعة!...

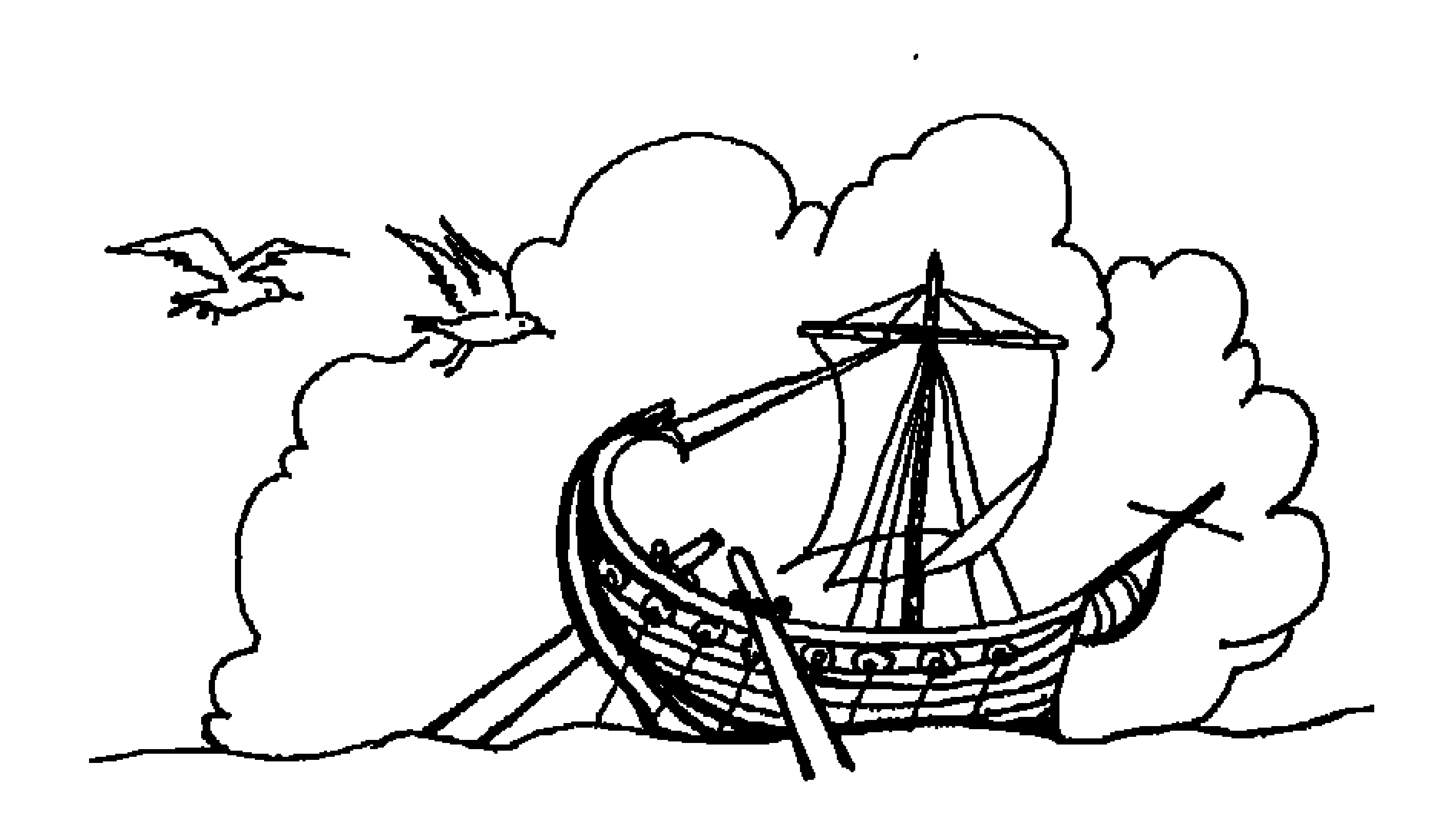
فبيلاجيوس المبتدع نزل إلى الحضيض، ونظر إلى الموضوع على مستوى الواقع العملي المجرد، فرأى أن جهد الإنسان هو كل شيء، فخرج عن حدود الإيمان.

وقاومه أغسطينوس بشيء من المغالاة، ونظر إلى الموضوع نظرة مطلقة، فرأى أنه لا يوجد لجهد الإنسان أي قيمة، طالما أن الإنسان يحيا ويتحرك ويوجد بالله. إذن فالنعمة هي كل شيء.

وتدخل كاسيانوس متخذاً الطريق الوسط، معتمداً على تعاليم بعض القديسين بنتريا فقال أن الإنسان يبدأ بالجهد الذاتي، والنعمة تُكمّل، فاعتُبر أنه وقف وقفة خاطئة في منتصف الطريق.

وأخيراً، استقر الوضع اللاهوتي على اصطلاح محدد (كان مستعملاً عند اكليمندس الإسكندري)، بضم فعل الجهد الذاتي وعمل النعمة معاً في الحياة النسكية بصورة متلازمة، وهو كلمة (Synergy = συνεργία) = «سينرجيا» وتعني انسجام العمل أو توافق الفعل... **بحيث يكون لكل من الجهد الذاتي وعمل النعمة حرية البدء والتكميل والتلازم جميعاً معاً. ويوجد تصوير عملي لعمل الجهد الذاتي والنعمة لا يخلو من منفعة، وهو تشبيه الحياة النسكية بملاح يجاهد ليعبر بحراً وفي زورقه مجدافان وشراع، فهو تارة يجدف بيديه وتارة يفرد شراعه ليلتقط الريح، وهكذا تسير مركبته بجهد ذراعيه وبفعل النعمة إلى أن يبلغ قصده.**





الفصل الثاني
المفهوم الروحي للنسك في الإنجيل

النسك عمل بشري ويظل بشرياً
إلى أن يقدسه الروح القدس والكلمة:

يلزم الإحتراس الشديد إذا ما حاولنا أن نفحص العمل النسكي على ضوء كلمات الكتاب المقدس عموماً، **لأن الإنحراف بكلمة الله عن جوهرها الذاتي الحي الفعال في الطبيعة البشرية وفي العالم إلى مجرد عمل بشري يكون من أخطر ما يمكن...**

فالكتاب المقدس لا يمكن الدخول إليه إلا من مدخل إلهي، أي على أساس أن كلمة الله هي الحاملة لسر الحياة الأبدية، وباعتبارها وحدها روح الحياة المغيّرة والمجدِّدة والـمُقيمة من الموت بسلطان الله وعمل المسيح الذي هو الكلمة المتجسد... أما العمل النسكي الذي يؤديه الإنسان فمهما تسامينا بدوافعه ومضمونه وأهدافه فهو عمل بشري...

الكتاب المقدس يقوم أساساً على السلطان الذاتي لكلمة الله، المرسلة لتعمل عملها في العالم بقوة إلهية كبشارة «إنجيل» مُفرحة، تفتح بالخبر السار الطريق إلى ملكوت الله عبر قلب الإنسان بقوة فائقة. **ولكن الكتاب لا يغفل العمل البشري أيضاً، بل يزكيه كوصية وأمر. العمل النسكي موضوع لإخضاع الطبيعة البشرية لسلطان الروح، حتى لا تتعوق أو يتعطل تجديدها... غير أن الجسد لا يستطيع أن يمتد أو يفعل في الروح، والعكس صحيح.** في المسيحية الروح يقدس الجسد و يُرَوحِنه ويهيؤه لقيامة غير فاسدة، بل الروح يستطيع أن يقدس المادة أيضاً و ينقلها من طبيعتها ليجعلها روحانية... لذلك، **كل عمل جسدي إذا لم يتقدس بالروح فهو ميت، لابد أن ينحصر العمل الجسدي بين دافع روحي وغاية روحية حتى يعتبر عملاً روحياً، الدافع الروحي يقدس العمل الجسدي. والغاية الروحية تخلده...**

لا يوجد منهج نسكي في الإنجيل:

كذلك فالعمل النسكي في الكتاب المقدس لا يأخذ لنفسه شكل منهج خلاصي، فالإنسان يستحيل عليه أن يعمل عملاً جسدياً من طرفه يؤول إلى خلاص نفسه ـ الله وحده هو مخلص البشر، والخلاص عمل فائق... ونحن نصلي دائماً[1]: «بأعمالي ليس لي خلاص»، ولكن في نفس الوقت يقف الكتاب موقفاً حاسماً تجاه ممارسة الأعمال النسكية، كضرورة تحتمها طبيعة الإنسان والعالم بسبب ميلها للنكوص والسقوط.

هدف الإنجيل الروحي من العمل النسكي:

العمل النسكي بالممارسة المتواصلة، يُقوِّم الطبيعة البشرية ويُشددها، ويحفظها من الإرتداد والتقهقر، والميل المستمر للسقوط والفشل، أما إقامة الطبيعة من الموت وتجديدها وإنارتها وإعطاؤها الحياة الأبدية فهو عمل الكلمة... «أقمتَ الطبيعة بالكلمة»[2].

والكتاب المقدس بالرغم من اهتمامه في مواضع كثيرة جداً بأعمال نسكية حاسمة وضابطة لقلب الإنسان وفكره وأعضاء جسده، إلا أنه لم يرسم في تعليمه صورة ممارسات شكلية معيَّنة أو قوانين تصلح أن تكون مدرسة عملية لحياة نسكية جدية... الكتاب المقدس دائماً يشخص ناحية الروح، لذلك لا يوصي إلا بالإلهام كطريقة وكأساس للنمو والمعرفة والتجديد والحياة...

فالجسد في الكتاب المقدس يُعان دائماً بالروح وليس العكس... اتجاه التعليم في الكتاب المقدس اتجاه خَلْقِي جديد وليس تقويمياً أو تعديلياً أو مدرسياً. الإنسان من خلال الكلمة يدخله الروح ويباشر عمله فيه، كفعل خلق مستمر

---

(١) صلاة نصف الليل (قطع الخدمة الثالثة).

(٢) قداس القديس غريغوريوس الثيئولوغوس.

بالإنارة والإلهام، كإنسان يولد بالروح من جديد فيؤهل لرؤية الملكوت ويحيا مع الله. التقويم المستمر للطبيعة الجسدية والتعديل المستمر لها بالتهذيب العملي، بالممارسات النسكية، لا يؤهلها للميلاد الجديد ولا للإستنارة ولا للإلهام ولا لرؤية الملكوت ولا للحياة مع الله، لأن ليست هذه من طبائع الجسد حتى توهب بأعمال الجسد، إنما هي ثمار الروح، وكل غاية الأعمال النسكية هي تهذيب الجسد والحواس لتُنَمِّي فيه قوة الضبط الإرادي والإحتراس واليقظة، حتى لا يعوق عطية الروح ولا يمنع عمل التجديد.

الجسد والعالم بالنسبة للإنجيل:

الحياة النسكية حياة مشاعة في كل الأديان، ولها مناهج قاسية وخطرة وشديدة الإنحراف. ولكن المنهج النسكي من حيث ماهية الممارسات الجسدية ودوافعها وأهدافها، يتحدد بصورة أساسية بالنسبة للنظرة الإعتبارية لقيمة الجسد الإنساني والعالم، اللذين هما ميدانا العمل النسكي. الكتاب المقدس يختص بنظرة اعتبارية فريدة من نوعها بالنسبة لجسد الإنسان والعالم، يختلف فيها عن كل الأديان.

الجسد الإنساني ليس شريراً، في اعتبار الكتاب المقدس، ولا هو مصدر للشر. إنما هو فقط منفعل للخطيئة ومنقاد إليها ومنجذب نحوها، فإذا كفَّ عن انفعاله للخطيئة وتنافر معها، صار قابلاً للقداسة، وصار هيكلاً مُعدّاً لسكنى الروح القدس.

كذلك والعالم ليس شريراً، في اعتبار الكتاب المقدس، ولكنه أُخضع للباطل فقط، عن اضطرار (رو٨: ٢٠)، ووضع في الشرير (١يو٥: ١٩). فهو في حالة سقوط، يئن و يود أن يتحرر من الباطل، و ينتظر فداء الإنسان (رو٨: ٢٣). والإنسان المتحرر من الخطيئة، يستطيع أن يقيم العالم حوله و يكرز له بالقيامة. والكتاب المقدس جعل الإنسان مسئولاً عن الكرازة للعالم أجمع، لأن الله أحب العالم (يو٣: ١٦).

الكتاب المقدس ينص على أن الإنسان الأول، آدم وحواء معاً، كانا يعيشان مع الله بجسديهما، في حياة شركة عميقة واقتراب ورؤيا مستمرة، بدالة بنوية لله صادقة وبسيطة؛ ولم يكن الجسد ولا العالم عند آدم وحواء، مانِعَين على الإطلاق من رؤية الله والحياة معه. ولكن بعد قبولها الخطيئة، ودخول الخطيئة فكرهما وجسدهما وإرادتها، وقعا في حالة خوف من الله، وفُرقة اضطرارية، وعدم رؤيا، ونزوع إلى الإختباء من وجهه!...

المسيح جاء ليعيد الإنسان إلى الله، ويرفع حالة الخوف والفرقة والعمى الروحي والهروب، بواسطة رفع السبب والعلة... السبب والعلة ليس الجسد أو المادة أو العالم أو الإرادة، وإنما الخطيئة التي سكنت الجسد والعالم والإرادة!...

الكتاب المقدس يهتم بالجسد والعالم، كيف يُحررهما من الخطيئة وكيف يُقدسها لله، لأن بذلك يعود الإنسان إلى الحياة مع الله.

الكتاب المقدس قوة روحية تحرر الجسد من الشر المتسلط عليه، وليس عمل الكتاب المقدس أن يتحرر الروح من الجسد. كذلك فالكتاب يهتم كيف يتحول العالم في نظر الإنسان وفي حياته، من ظلمة إلى نور، ومن باطل إلى حق، وتتجدد علائق الناس وتتقدس نظرتهم إلى المادة والحياة الجسدية، وليس عمل الكتاب أن يُهمَل العالمُ كشرٍ ميئوس منه، يجب أن يقاطَع ويقاوَم إلى أن يزول...

المادة بحد ذاتها ليست شريرة، في تعليم الكتاب المقدس، لذلك لا يطالب بفصلها عن الروح. لا يفصل عن الروح إلا الخطيئة، لأن الخطيئة جوهر شر، بمعنى أنها بطبيعتها عدم ولا شيء، وكل من يتحد بها يتحرك نحو العدم واللاشيء، إلى الموت والهلاك.

إذا تطهر الجسد من سلطان الخطيئة استنار، «متى كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيّراً... ليس فيه جزء مظلم» (لو١١: ٣٤ــ٣٦)، وصار شريكاً للروح في الرؤيا وفي التجليات وفي القيامة العتيدة أن تكون بمجد الله...

الجسد له نصيب أساسي في التجديد. **والكتاب يطمئننا أن المسيح سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده (في٣: ٢١).**

كذلك فالكتاب يُصر على الطلبة والصلاة لتمكين مشيئة الله على الأرض كما هي في السماء (مت٦: ١٠)، كي تتحول طبيعة العالم في حد ذاتها إلى طبيعة نَيِّرة حسب الله. **كل تعاليم الكتاب المقدس وقوته تتجه مباشرة إلى تحرير المادة والجسد والعالم والإرادة والمعرفة، من سلطان الخطيئة والشر، دون إسقاط للمادة أو الجسد أو العالم أو الإرادة أو المعرفة، في حد ذاتها.**

النسك في الإنجيل يعمل جنباً إلى جنب مع العمل الإلهي:

قوة الكتاب المقدس الإلهية قائمة بصورة قاطعة، سواء بالعمل الإلهي أو بالعمل البشري، في عمليات تحويل جذرية، في تحويل الموت إلى حياة، وتغيير الفاسد إلى عدم فساد، والظلمة إلى نور، وغير الطاهر إلى طاهر؛ وعلى وجه العموم، رفع الطبيعة الضعيفة المستعبدة تحت العوز والجهل والخطيئة، إلى شركة في الطبيعة الإلهية الروحانية الفائقة.

على أساس هذا الإتجاه العملي الإيجابي في الكتاب المقدس، (بخصوص المادة والجسد والعالم والشر)، **يتحدد مفهوم العمل النسكي ودوافعه وأهدافه المفروض أن يقوم بها الإنسان... بحيث يسير جنباً إلى جنب مع العمل الإلهي الذي اضطلع به الله بالتجسد والفداء والخلقة الروحانية الجديدة، بالميلاد الثاني وسر التجديد بالروح القدس...**

الخليقة الجديدة الروحانية هي مصدر الإلهام للعمل النسكي:

الله يخلق طبيعة روحانية جديدة للإنسان، ويمدها بكل وسائط النعمة، لكي يتأهل بها الإنسان إلى الدخول في شركة الحياة الأبدية مع الله وميراث يسوع المسيح...

ولكن الطبيعة الروحية الجديدة الموهوبة للإنسان كعمل إلهي، لا تلاشي الطبيعة الجسدية أو تلغي صفاتها وعملها. الطبيعة الروحانية الجديدة الموهوبة من الله، لها عمل إيجابي في الإنسان تجاه الجسد والحواس والغريزة والإرادة والعالم، عمل ذو اتجاهين:

الإتجاه الأول: أن تضعف ميل الجسد نحو الخطيئة.

الإتجاه الثاني: أن تجذبه باستمرار إلى الله.

الخليقة الجديدة بكل إمكانياتها وكل إنعاماتها وكل مواهبها، في الكتاب المقدس، ليست مستقلة عن الجسد أو قائمة بذاتها منفصلة عن الإحتكاك بالعالم وحوادثه، ولا تُعتبر في حد ذاتها نهاية أو نتيجة، ولكن كطريق نعبره عائدين إلى الله بالجسد والإرادة وفي صميم العالم الذي نعيش فيه.

الروح في الخليقة الجديدة وَصِيٌّ على الجسد، وقائد ومعلم وطبيب وقاضي ومؤدب، بسبب ما جعله الله في الخليقة الجديدة من حرية الإرادة، وحرية الإختيار، ومعرفة الحق، والقدرة على التمييز، والإستنارة، والحب الإلهي.

الخليقة الروحية الجديدة في الإنسان تكون صادرة من الله «ومتصلة» دائماً به، والنعمة تدبرها وتسندها وتمدها بقوة سرية، لذلك فالإنسان المولود ثانية قادر أن يقود الجسد ويخضعه لسلطان الروح، وقادر أن يحرره من سلطان الخطيئة، وقادر أن يحرره من حتمية الغريزة واضطرار الطبيعة وسطوة العادة، وقادر أن يطهره من آثار الضعف التي خلفتها الخطيئة. لذلك نجد الكتاب المقدس يضع المسئولية كاملة وبصورة صارمة على الإنسان الروحي، من جهة مقاومة الخطيئة، وحفظ الجسد طاهراً والسلوك روحياً، وتجنب كل عثرة وغواية، والوقوف ضد تيارات العالم وشهواته، دون أن يعطي للإنسان الروحي أي عذر، أو يلتمس له أدنى إعفاء من اللوم والدينونة، إن هو أطاع الجسد أو خضع للخطيئة...

تفسير الوصية النسكية على أساس واقعي روحي:

أي أن الوصية النسكية في الكتاب المقدس بصورتها الصارمة، كأن يقلع الإنسان عينه أو يقطع يده أو رجله أو يخصي نفسه، لا تعتمد على قدرة الإنسان الطبيعية أو شجاعته وبأسه، إنما تستمد ثقلها الروحي من طاعة الوصية طاعة حرفية، ومن الإعتماد على القوة الروحية الموهوبة للإنسان بواسطة الخليقة الجديدة التي نالها من الله، والتي لا تزال متصلة بالله بالنعمة. هذا بالإضافة إلى استعداد المسيح الكامل للمعونة الشخصية في اللحظة الحرجة، حتى يبلغ الإنسان إلى مستوى نية قطع اليد والرجل وقلع العين والإخصاء بالفعل، في عمق الضمير كما بلغ إبراهيم إلى نية ذبح إبنه إسحق والسكين في يده، وحينئذ تتم معجزة التحول والنجاة.

لذلك، فأي محاولة لشرح أو تفسير تعليم المسيح الصريح بأن «إن أعثرتك عينك فاقلعها»، وكذلك «يدك أو رجلك» (مر ٩: ٤٣-٤٧)، على أساس مجازي أو على أساس أنها مجرد مَثَل أعلى غير قابل للتنفيذ، يسيء أشد الإساءة إلى الغاية من تعاليم المسيح، و يطعن في مفهوم الخليقة الجديدة وسلطانها على الجسد، ويجردها من روح القوة و يضعف سلطانها الروحي الفائق.

لأن وصية قطع اليد أو الرجل أو قلع العين أو الإخصاء، وُضعت أصلاً لتقييم الحياة الأبدية بالنسبة للحياة الجسدية، وغاية المسيح منها أن يبلغها كل إنسان في أعماق ضميره، مقتنعاً بصحتها كما **اقتنع** ابراهيم بصحة أمر الله بذبح ابنه اسحق، **وارتضى** بهذا الأمر **وانتهى** مع نفسه تماماً لتنفيذه، فلما بلغ حد النية الكاملة لذبح إبنه إطاعة لأمر الله، تدخل الله باعتبار أن ابراهيم أكمل الذبح فعلاً، وإن لم يكن بالسكين بل بنية قلبه.

إذن فالوصية النسكية الجسدية موضوعة للتنفيذ الفعلي، إنما على مستوى الضمير بكل صدق وإخلاص وأمانة.

وفي حياة المسيح نجد العملين يتمان معاً: عمل النية مع العمل الفعلي. فالمسيح ذبح نفسه بالنية يوم الخميس حينما قال لتلاميذه هذا هو جسدي المكسور، هذا هو دمي المسفوك. و يوم الجمعة سلم الجسد فعلاً للذبح على الصليب!

والإنسان المسيحي الذي تعثره عينه أو شهوته، مطلوب منه أن يصلب جسده بحسب الإنجيل (غل ٥: ٢٤)، أي أن يعيش بالنية مقلوع العين تجاه الشهوة، مقطوع اليد تجاه الحرام، مخصي تجاه الزنا؛ و بالإختصار، ميت الأعضاء مصلوب الجسد تجاه كل خطيئة.

وإن كان يميل الشرّاح إلى التقليل من قيمة هذه الوصية جانحين في ذلك ــ خطأ ــ إلى تصور نتيجة القطع أو القلع على المستوى الجسدي، متجاهلين القوة المُعينة المرافقة لتعليم الرب التي تتدخل عند لحظة بلوغ النية إطاعة الوصية، غير ملتفتين إلى الأساس الذي وُضعت من أجله وصية قطع الجسد، وهو أفضلية الحياة الأبدية التي من أجلها مات المسيح نفسه وصُلبت أعضاؤه كلها.

التعليم النسكي الإنجيلي في الواقع العملي الروحي:

إذن، فالكتاب المقدس يتشدد في الوصية النسكية بقدرما يضمن نتيجة بلوغ حد تنفيذها!! الوصية النسكية في الكتاب المقدس، قبل أن تبلغ هذه الصورة العظمى من العنف والصرامة تجاه الجسد، سبقت وغرست في الجسد عينه ــ كخليقة جديدة (٢ كو ٥: ١٧) ــ غلبة الموت وقوة الحياة!...

الكتاب المقدس، قبل أن يطلب أن تقلع العين وتقطع اليد والرجل، سبق فولد فينا إنساناً جديداً كاملاً بكل أعضائه، روحياً مؤهلاً للحياة الأبدية، لا يتأثر من تقطيع الأعضاء بل ولا يخشى من القتل كلية... والملكوت على قيد خطوة. هذا بحد ذاته يرفع الإرادة والنية بقوة إلى مستوى إطاعة الوصية.

إذن، فصرامة الوصية النسكية في الكتاب المقدس تعتمد، بصورة أساسية، على

طاعة كلمة الله بصفتها قادرة أن تُكمِّل كل وعد الله، وعلى عمل النعمة في الخليقة الجديدة التي نلناها سابقاً بالميلاد الثاني من الماء والروح بالمسيح، **بحيث أنه بدون عمل النعمة هذا فإن العمل النسكي، مهما بلغ، يصبح عديم النفع؛ «ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت» (رو٧: ٢٤). والإماتة التي بلغت إلى قلع العين وقطع اليد والرجل وخصي الإنسان لنفسه، تعتمد أساساً وبصورة كلية على الحياة الأبدية التي منحها الله في كيان الإنسان، وصارت مستعدة أن تقيمه من المرض والتشويه والموت إنساناً لا عيب فيه، كاملاً في الروح، مثمراً، لائقاً لميراث كامل مع المسيح في ملكوت الله.** هذا يُشجع الضمير لكي يسلك الإنسان في هذه الحياة كأقطع اليد، أو كأعرج الرجل، أو كمقلوع العين، أو كمخصي تجاه الخطية، بمنتهى راحة الضمير دون الحاجة إلى سكين أو مخراز لتكميل العمل على مستوى الجسد.

الوصية النسكية تقوم في الإنجيل بضمان النعمة:

إذن، فالكتاب حينما يأمر بقلع العين اتقاءً للخطية ودفاعاً عن القداسة، **يعتمد سراً على عمل النعمة داخل الإنسان، التي توصله إلى هذه الحالة بالفعل بدون سكين أو مخراز، بقصد ضمان دخول الإنسان إلى الحياة الأبدية وهو أعور بالنية، أي كمن لا عين له تجاه الخطيئة مع أنه ذو عينين تجاه الله.**

لذلك، فالوصية النسكية تفقد قيمتها في الكتاب المقدس إذا لم تكن — من جهة — معتمدة على النعمة، ومن الجهة الأخرى، تكون مرتبطة بالحياة الأبدية كهدف السعي... أي لابد أن يكون العمل النسكي **أولاً**، مستمِداً قوته ودوافعه من المسيح، ومؤازَراً بالنعمة، أي لا يكون مستمَداً من الصرامة الجسدية وحسب، **لأنه يمكن أن يقلع الإنسان عينه عن صرامة جسدية ويظل يشتهي كما هو، وثانياً**، يكون هادفاً للحياة الأبدية، أي لا يتوقف عند لذة الإماتة بل يتجاوز الإحساس بالموت إلى الإحساس بالحياة الأبدية!... **لأنه قد يخصي الإنسان نفسه بالفعل وعن صرامة**

جسدية ويبقى نادماً على ما فعل، بعيداً عن ملكوت الله.

لذلك، فالعمل النسكي في الكتاب المقدس ليس طقساً ولا ناموساً جسدياً في حد ذاته، بل لا يزيد عن كونه وصية أو أمراً يحمل ضمان تحقيقه في الإستجابة القلبية له. فبمجرد أن ينحاز الضمير للوصية بصدق النية واستعداد الإرادة يجد الإنسان عوناً من النعمة في حينه، وبمجرد أن يعزم على التنفيذ تبدأ النعمة تعمل بدل الخطيئة وتبدأ الحياة تسري بدل الموت لحظة بلحظة، فكل إماتة للأعضاء بإخلاص النية يلازمها قيامة بالروح للأعضاء بالنعمة، وكل موت حقيقي يلازمه حياة أبدية.

العمل النسكي عمليتان متلازمتان:

تطبيق للوصية (موت)، وقبول نتائجها بآن واحد (حياة).

العمل النسكي في الكتاب المقدس ليس محاولة تمهد لشيء قد يأتي بعدها أو لا يأتي، ولا هو مجرد تمرين يؤهل لنتيجة، ولكنه وصية إلهية يتلازم فيها العمل والنتيجة معاً بصورة وعد يتحقق بالإيمان، فكل عمل نسكي يتم على مستوى الوصية هو في واقعه الإلهي موت وحياة، خسارة وربح معاً...

الموت والحياة في العمل النسكي عملية واحدة وليسا عمليتين، عملية واحدة ذات حدّين. فالموت يكمل بمقدار الدخول في الحياة مع الله بالوصية، والحياة تسود بمقدار تكميل الوصية بالموت عن الجسد والعالم.

التحول هنا يتم في صميم طبيعة الإنسان. حبة الحنطة يجب أن تقع وتموت أولاً (يو١٢ : ٢٤)، وحينئذ الموت نفسه يتحول لها إلى حياة جديدة...

العمل النسكي كموت لحياة يستمد قوته
من سر الفداء، موت المسيح وحياته:

العمل النسكي في الكتاب المقدس يستمد قوته على التجديد وتحويل الموت إلى

حياة، من قوة الفداء الذي أكمله المسيح عنا بموت الجسد، ثم انتصاره على الموت بالقيامة...

لذلك إذا انفصل العمل النسكي عن سر الإنجيل، أي القيامة، لحظة واحدة فهو لن يزيد عن فعل إماتة مجردة وحسب؛ ولن يؤول إلى حياة أو تجديد، بل يبقى فعل تطهير بحسب الناموس كمعمودية يوحنا أو أقل.

لذلك، فإن العمل النسكي الذي يتممه الإنسان على أساس سر الفداء الذي أكمله المسيح، والقيامة التي حققها لنا في الجسد، **يُعتبر من صميم الإيمان، حيث يشكِّل الرجاء في العمل النسكي عنصراً جوهرياً**... حينئذ لا يُحسب بعد كعمل بشري أو تمرين جسدي، بل يصير عملاً روحياً قائماً على أساس الفداء وملتزماً بالوصية الإلهية، أي يُعتبر **عمل إيمان ورجاء بالحياة**... أي أن النسك في الكتاب المقدس هو من صميم عمل الإيمان والرجاء، لذلك مهما بدا الكتاب المقدس صارماً في التوجيه إليه والحض عليه، ومهما بدت التضحيات والإماتات الجسدية جسيمة، فإن العمل النسكي يظل يحمل في أعماقه قوة الفداء وعطية الحياة الأبدية.

العمل النسكي في حقيقته يخدم التحول
من حياة حسب الجسد لحياة حسب الروح:

تلازُم الموت والحياة معاً في العمل النسكي، يشرحه الكتاب المقدس أنه، في حقيقته، عملية تحول من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح، باعتبار أن العمل النسكي في الكتاب المقدس هو تفاعل حي بين الخليقة الجديدة السمائية والجسد الترابي الواقع تحت سلطان الخطيئة وحتمية الغريزة واضطرار الطبيعة، أي هو عملية واحدة ظاهرها الصرامة النسكية وجوهرها النعمة، خارجها الإماتة و باطنها الحياة... تنتهي على مدى الزمن بانتصار الجوهر على المظهر. «ثم رأيت سماءً جديدة وأرضاً جديدة» (رؤ ٢١ : ١).

بقدر ما ينجح العمل النسكي
في التحول من الجسد للروح، تُرفع الدينونة:

والكتاب المقدس يعتبر أن انفلات الإنسان من الحياة حسب الجسد والعالم إلى حياة حسب الروح في المسيح، **يحقق للإنسان عبور الدينونة منذ الآن، فيرفع عن الإنسان ثقل الإحساس بالخطيئة ودينها مع كل قضاء الموت ورعبه**. «**إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح**» (رو٨: ١)، فيتحرر الإنسان منذ الآن من مذلة الخطيئة ومن عبودية الخوف من الموت... ولكن يالتعاسة العمل النسكي إذا كان بدون تفاعل حي مع الروح والخليقة الجديدة السمائية ومؤازرة النعمة، فإنه يزيد ثقل الضمير ويركز الإحساس والتفكير كله حول الخطيئة، وإذ يزداد هول الخطيئة من جراء الفشل الجسدي يزداد رعب الموت بالضرورة.

آلام النسك تصبح بالنهاية ذخيرة حرية وراحة واستنارة:

فالعمل النسكي في الكتاب المقدس، إذا أُخذ على أساس أنه تفاعل حي مستمر بين الخليقة الجديدة السمائية والجسد الترابي الواقع تحت ناموس الخطيئة، **يصبح عملية تحرير مستمرة من عبودية الخطيئة والموت**، وتحولاً في كيان الإنسان لينحاز كله إلى الله، وبالتالي يصبح تجديداً لهيئة العالم بالنسبة للإنسان، كحالة قيامة داخلية، تمهيداً وإعداداً للإنتقال الكامل إلى ملكوت الله.

أما هذه الإماتات المتعددة والضعف والعوز والمرض، هذه التي يحملها الجسد كآثار للعمل النسكي والجهاد ضد الخطية، تصير له بالنهاية **علامات انتصار وراحة وسلام، شبيهة بآثار الصليب**، «سمات الرب يسوع»، مماثلة لآثار المسامير والحربة والشوك، كختم عتق وحرية وإراحة من ألم الخطية وأتعاب الجسد وجذب الغريزة وإلحاح الشهوة وكذب العالم: «لا يجلب أحد عليّ أتعاباً فيما بعد لأني حامل في جسدي سمات الرب يسوع» (غل٦: ١٧)، وكأنما جروح المعركة تصير بالنهاية معمودية يصطبغ بها

الإنسان فيكف عنه ألم الموت... «لا يسود عليه الموت بعد» (رو٦: ٩)!

الكتاب المقدس يشدد أن العمل النسكي، إن كان معمولاً بالروح، فهو اقتناء فعلي للحياة: «إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو٨: ١٣)! الإنسان الروحي يقتني بالإماتات الظاهرة والباطنة ذخيرة حياة لا تزول، حينما يكون عمل النسك هو فاعلية نعمة. فالسهر والصلاة والدموع والتقشف والصوم والحرمان والفقر والعفة وقطع المشيئة لله، حينما يقتنيها الإنسان فهو يقتني النعمة في صورة نسك، أو يقتني الحياة في هيئة إماتة، أو يقتني النور والراحة في هيئة حرمان وحزن.

هذا هو الزيت الذي «اقتنينه» الخمس العذارى الحكيمات بالدموع (مت ٢٥)، لم يذهبن ليبتعنه من الخارج كالجاهلات، ولكنهن اقتنينه بالنعمة، أي بالروح، مع الجهد والمعاناة يوماً فيوماً داخل آنية أجسادهن الضعيفة. الزيت المبتاع شيء والزيت المقتنى شيء آخر؛ الزيت المشترى لم تؤهل صاحباته للدخول، لأنه ليس من اقتناء الروح والنعمة.

النسك الروحي، «إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد»، في الكتاب المقدس، بمثابة اقتناء زيت الإستعداد الذي يحمل فيه الإنسان سر مجيء الرب، إذا اقتناه أحد في آنية جسده فهو يكون دائماً متأهباً مستعداً كمن اقتنى قيامة حاضرة، فمهما أصاب الجسد من تعب وضعف وقصور، ومهما دبّت فيه الأمراض وعلامات انحلال الموت، تجده شجاعاً ينتظر ساعة الدعوة وأذنه مرهفة لسماع صوت العريس...

العمل النسكي زيت ابتهاج يقتنيه الإنسان قطرة قطرة كعصير النعمة... إنه ذخيرة حياة مفرحة يعبر بها الإنسان ساعة الموت الرهيبة بانتعاش روحي، فلا يئن كمن لا يريد أن يخلع مسكنه الأرضي (٢كو٥: ١-٩)، كإنسان غير محترص بسبب عمله غير المرضي أمام الرب، بل بالحري يفرح إذ يجد ثوب العرس مهيئاً للبس والأعمال مبيضة في دم الخروف (رؤ٧: ١٤).

العمل النسكي، كنور غلبة الحياة على الموت، يتقدمنا هنا على طول الطريق الضيق، حتى عتبة باب الدخول، ليبدد عنا وحشة الطريق وظلال تهديدات الموت...

الكتاب المقدس يشدد، أن لا يجزع الإنسان من الضعف الجسدي: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد» (لو١٢: ٤)، «إن أعثرتك عينك اليمنى فاقلعها» (مت٥: ٢٩). الله لا يمتنع عليه أن يحيي الموتى و يشدد المحطّم، ولكنه يفضل دائماً أن يعمل بقوته في الإناء الأضعف. **ومهما أصاب الجسد من عوز أو هزال أو مرض، فلن تعطّل هذه كلها قوة الله من أن تبلغ أوج عملها وكمالها في الإنسان «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمَل»** (٢ كو١٢: ٩). إن سر قوة الإنسان، في الكتاب المقدس، ليست في صحة الجسد أو في حكمة العقل ورزانته أو في قوة الإرادة ومضاء العزيمة؛ ولكن سر قوة الإنسان المسيحي تكمن دائماً أبداً في اقتناء النعمة «تكفيك نعمتي». والكتاب المقدس يضع قوة الله رهن كل ضعف بشري يصيب الإنسان من أجل الله، حيث تزدهر قوة الله في الضعيف والمنسحق والمكسور، وتكمّل عملها وراحتها فيه أكثر من ربوات قوات بشرية...

شرط النسك الإنجيلي الذي يجعله مقبولاً لدى الله:

«وأما أنت فتى **صُمت**... لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي **في الخفاء**».
«ومتى **صليت** فادخل إلى مخدعك واغلق بابك وصلّ إلى أبيك الذي **في الخفاء**».

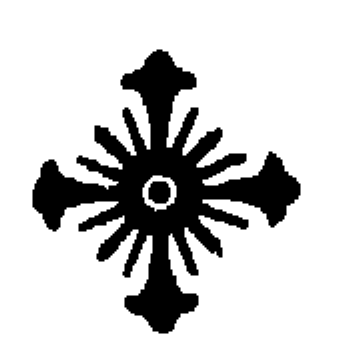
«ومتى صنعت **صدقة** فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك، لكي تكون صدقتك **في الخفاء**» (متى٦: ١–٨).

العمل النسكي منظور إليه في الكتاب المقدس أنه عمل سري، كفعل عبادة تتممه النفس في الخفاء، حينما تسكب ذاتها سكيباً أمام الله. ولكن الطبيعة البشرية

أفسدتها الخطيئة وجعلتها في حالة نقص وعوز، لذلك أصبحت ميالة إلى التأله الكاذب تطلب التكامل وتسعى دائماً أن تتمجد بأعمال الألوهة. ولأن النسك في جوهره تسامي فوق الطبيعة البشرية وإعلاء بالغرائز ونزوع إلى التكامل، لذلك فهو أنسب الأعمال للنفس المنحرفة لترتاح فيه وتحقق به وجودها الذاتي التألهي بين الناس... والناس بدورهم، إذ يعظمون العمل النسكي جداً و يكرمونه في حد ذاته، يسهلون بمديحهم الطريق إلى الإنزلاق أمام النفس التي تهوى الكرامة والتمجيد، لكي تتبارى في إتقان الأعمال النسكية والتمادي فيها، لتزداد وجوداً عند ذاتها و يتضخم فيها «الأنا»، حتى يصير قريباً من درجة الألوهة. مع أن العمل النسكي، في حد ذاته، عمل إماتة وإخلاء، وهو أصلاً قدرة موهوبة للإنسان ليتغلب بها على ذاته المتعظمة، ليلغيها حينما يباشر قمعها وضبطها في الخفاء سراً أمام الله، على أساس تسليمها الكلي لله...

الكتاب المقدس يضع الإنسان الناسك موضعاً حرجاً أقصى ما يكون الحرج، حينما يشتهر عمله بين الناس و يصير له مديح وكرامة في العالم، حيث ينتهي ــ على حد قول الكتاب ــ كل أجر له عند الله، أو جزاء روحي من أي نوع... والإنسان غالباً مسئول في ذلك... «قد استوفوا أجرهم» (مت٦ : ٢)...

الكتاب المقدس لا يغفل نقص الإنسان وعوزه الروحي ونزوعه إلى الكمال الحقيقي، لذلك لم يجعل العمل النسكي ضرورة مطلقة ــ في حد ذاتها ــ يحتمها الله دون أن يكون لها نتيجة مباشرة على طبيعة الإنسان الناقصة النازعة إلى الكمال، بل حدد له جزاءً واضحاً ومباشراً **«أبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية»** (مت٦ : ٤)... أي أن الله الذي غرس العمل النسكي في طبيعتنا كنزوع إلى الكمال، أمَّنَ للإنسان أن يبلغه حتماً في ظل الوصية الأمينة، إن التزم الإنسان بشروطها الإلهية الصارمة... «في الخفاء».



جزاء النسك غنى روحي:

وما هو جزاء الله؟: «كنت أميناً في القليل، فأقيمك على الكثير» (مت ٢٥: ٢١). هكذا يحقق الله للإنسان التكامل، لا من القلة إلى الكثرة حسب ظاهر الآية، وإنما الإنتقال من الإعتبارات الجسدية المؤداة بالنسك، إلى الإعتبارات الروحية الموهوبة بالنعمة، لأن القليل يشير دائماً إلى الجسديات والكثير يشير إلى الروحيات...

والإنسان بمجرد أن تنجح نسكياته وتُقبل صلواته، يدخل في مجال الروح فتنحل عنه كل إحساسات النقص والعوز التي كانت ترزح تحت ثقلها الذات البشرية متململة، تتلمس التعويض المادي بين الناس... **مجازاة الله لا تعادلها مجازاة العالم كله... الله لما يغني الإنسان بالروح، يكف عنه الإحساس بالعوز الجسدي.** وعندما يهبه الإستنارة ومعرفة الحق، لا يعود يطلب مجد العالم، ولا يحزن لظلم العالم، ولا ترتاح ذاته إلا في التسليم الكلي لله...

والله لما يجازي علانية، لا يكون كالعالم الكذاب الذي يشهر أعمال النسك ليُوقع أصحابها في المجد الذاتي والسبح الباطل؛ علانية الله ممحصة بنار الروح القدس، ومجازاته غير خائبة البتة وهباته بلا ندامة... «صلواتك وصدقاتك صعدت تذكاراً أمام الله» (أع ١٠: ٤).

العمل النسكي في الكتاب المقدس هو سر القليل المؤدي إلى الكثير، هو درب ضيق على الطريق الضيق يختصر السبيل إلى الباب المؤدي إلى الحياة، هو جهد الخفاء الذي نسرق به المجازاة خلسة... ونؤمّن أنفسنا ضد أباطيل الدنيا...

(انتهى)



كتابات الأب متى المسكين

١ . حياة الصلاة الأرثوذكسية	٨٢٠ صفحة
٢ . الكنيسة الخالدة	١٤٩ صفحة
٣ . العنصرة	٤٢ صفحة
٤ . لقد وجدنا يسوع	٢٨ صفحة
٥ . مع المسيح في آلامه وموته وقيامته	١٦٠ صفحة
٦ . الباراكليت ــ الروح القدس في حياة الناس	١١٢ صفحة
٧ . الكنيسة والدولة	١٢٨ صفحة
٨ . الوحدة المسيحية	٥٢ صفحة
٩ . العمل الروحي	٢٠ صفحة
١٠ . الخدمة (الحلقة الأولى)	٣٢ صفحة
١١ . كلمة الله ــ شهادة وخدمة وحياة	١٣٦ صفحة
١٢ . كيف تقرأ الكتاب المقدس	٤٠ صفحة
١٣ . توجيهات في الصلاة	٣٢ صفحة
١٤ . في التدبير الروحي	٥٤ صفحة
١٥ . ما وراء خط النار	٣٢ صفحة
١٦ . ميناء إيلات وصحراء النقب	٢٤ صفحة
١٧ . الصليب المقدس	٤٤ صفحة
١٨ . رأي في تحديد النسل	١٦ صفحة
١٩ . العذراء القديسة مريم والدة الإله (ثيئوتوكس)	١٠٣ صفحة
٢٠ . التسبحة اليومية ومزامير السواعي	١٨٤ صفحة
٢١ . القديس أنطونيوس ناسك إنجيلي	٦٠ صفحة
٢٢ . المسيحي في المجتمع	٨٨ صفحة
٢٣ . المسيحي في الأسرة	٣٢ صفحة
٢٤ . الخدمة (الحلقة الثانية)	٤٨ صفحة
٢٥ . المواهب الكنسية ــ أو الروح القدس في حياة الكنيسة	٤٠ صفحة
٢٦ . الصوم الأربعيني المقدس	١٠٠ صفحة
٢٧ . التوبــة	٣٢ صفحة
٢٨ . الإيمــان بالمسيح	١٩٦ صفحة

\+ + +

اطلب قائمة الكتب المتوفرة بالمكتبات
وأسعارها بين الحين والآخر

التوبة والنسك سر من أسرار الكنيسة. ولكن هذا السر يُعتبر في الواقع مدخلاً لجميع الأسرار، إذ لا يمكن أن يتم فعل أي سر في الإنسان إلا إذا كان تائباً إلى الله: «إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون» (لو١٣: ٣).

* * *

والتوبة موافقة لكل وقت ولكل شخص، للخطاة وللصديقين الذين يتطلعون إلى الخلاص، إذ ليس هناك حدود للكمال، بل إن كمال الذين يشعرون بالكمال هو هو عينه عدم الكمال!! وهكذا تكون أعمال التوبة وزمانها مفتقرة إلى تكميل، حتى إلى لحظة الموت!!

* * *



إعادة الطبعة الثانية سنة ١٩٩٣

الثمن جنيهاً واحداً